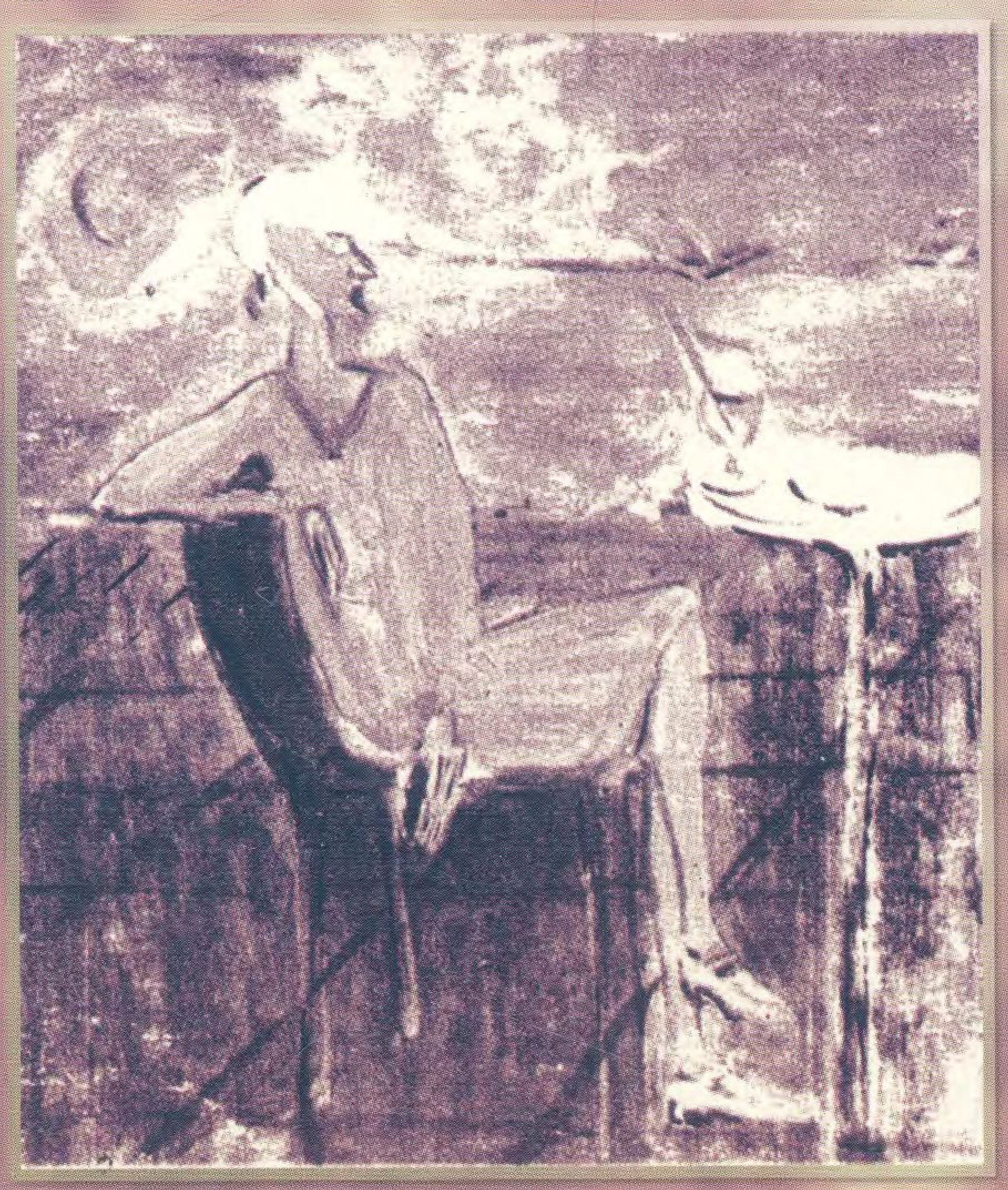
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

حبيبتي استانبول



تأليف: نديم غورسل
ترجمة: فاروق مصطفى



فـاروق مصطفى

- مواليد حلب ١٩٤٥.
- عضو اتحاد الكتّاب العرب.
- نال الشهادة الثانوية العامة (الفرع الأدبي) من ثانوية جول جمال باللاذقية عام ١٩٦٣.
- انتسب إلى كلية الحقوق بجامعة حلب ثم جامعة دمشق.
- يتقن اللغة التركية، ويجيد الإنكليزية، ويلم بالفرنسية والألمانية.
- عيّن موظفاً في جامعة حلب ١٩٧١، وأمضى فيها ما يزيد على سبعة وعشرين عاماً متنقلاً في مناصب إدارية مختلفة.
- شارك في كثير من أمسيات اتحاد الكتّاب العرب الأدبية في محافظات ومناطق سورية، وفي أمسيات المراكز الثقافية، وأمسيات النادي العربي للتمثيل والآداب والفنون بحلب، والنادي العربي الفلسطيني بحلب.
- نشرت بعض أعماله المترجمة في مجلات الكفاح العربي والشراع اللبنانيتين والبيان الكويتية، والحرية الفلسطينية، والأسبوع الأدبي والموقف الأدبي والآداب الأجنبية الصادرة عن اتحاد الكتّاب العرب، وفي صحيفتي تشرين والبعث السوريتين.

حبيبتي استانبول

الإشراف الفني والطباعي
أحمد عكيدي

حبيبتي استانبول

قصص قصيرة

تأليف : نديم غورسَل

ترجمة: فاروق مصطفى

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠٠٩

ISTANBUL

ÖYKÜLER

عن الطبعة التركية الثالثة

حبيبي استانبول: قصص قصيرة/تأليف نديم غورسل؛ ترجمة فاروق مصطفى .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٩ .- ١٦٠ ص؛ ٢٠ سم .-

(قصص قصيرة؛ ٢٢)

١- ٨٩٤,٣٥ غ و ر ح ٢- العنوان ٣- غورسل

٤- مصطفى ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص قصيرة

«٢٢»

نـديم غورسَـل

حياته و أعماله

ولد نديم غورسَل في تركيا عام ١٩٥١ . بدأ بنشر قصصه الأولى في المجلات الأدبية اعتباراً من عام ١٩٦٩ . أنهى دراسته الثانوية في ثانوية غالاطاسراي عام ١٩٧٠ . ثم أنهى دراسته الجامعية في قسم الأدب الفرنسي الحديث في جامعة السوربون في باريس عام ١٩٧٤ ، ومنها نال شهادة الدكتوراه في الأدب المقارن عام ١٩٧٩ . ومازال يعيش في باريس ويدرِّس الأدب التركي في جامعة السوربون ، كما يعمل باحثاً في «المركزالقومي للدراسات العلمية» . ويكتب باللغتين التركية والفرنسية .

يعتبر نديم غورسَل من مشاهير الأدباء الأتراك ، إذ نقل الأدب التركي إلى خارج حدود تركيا بكتبه التي ترجمت إلى عشر لغات أجنبية ، وقد ترجم له إلى اللغة العربية الأديب أحمد عثمان مجموعته «كتاب النساء» بعنوان «المرأة الأولى» وترجم له الأديب أحمد سويد قصته «صيف استمر طويلاً» بعنوان «صيف طويل في استانبول» .

تصدَّرت روايته «الحصن» قائمة المبيعات في تركيا لأشهر عديدة. أما مجموعته القصصية «حبيبتي استانبول» التي بين أيدينا والتي نال عليها عام ١٩٨٧ جائزة لجنة تحكيم نادي پَن الفرنسي، وجائزة خلدون طانَر للقصة، فسوف نرى فيها حب وأشواق وذكريات كاتب غريب يطوف أنحاء الدنيا بمفرده. وأثناء تجوال بطل القصص في باريس وموسكو ولينينغراد وأثينا والجزائر ومراكش ونيويورك واستانبول كانت الوقائع تترسخ في أعماق ذاكرته. لأنه كان يحمل ماضيه معه إلى كل بلد يذهب إليه، وإلى كل مدينة يشاهدها.

نال على أعماله الجوائز التالية :

١ـ جائزة مجمع اللغة التركية عام ١٩٧٦

٢ـ جائزة عبدي إپكجي للسلام عام ١٩٨٦ لمساهمته في التقارب التركي اليوناني .

٣ـ جائزة لجنة تحكيم نادي پَن الفرنسي عام ١٩٨٧

٤ـ جائزة خلدون طانَر للقصة عام ١٩٨٧

٥ ـ جائزة إذاعة فرنسا الدولية لأحسن قصة عام ١٩٩٠

٦ـ جائزة الرقيقة الذهبية من مقدونيا عام ١٩٩٢

آثاره الأدبية :

١ ـ حبيبتي استانبول – «مجموعة قصص قصيرة»

٢ ـ صيف استمر طويلاً – «قصة»

٣ ـ الترام الأخير – «مجموعة قصص قصيرة»

٤ ـ في التحقيق – «قصة»

٥ ـ فندق الرغبة – «قصة»

٦ ـ كتاب النساء – مجموعة قصص «قصيرة»

٧ ـ الحصن « رواية الفاتح» – «رواية»

٨ ـ ناظم حكمت و الأدب الشعبي التركي – «نقد»

٩ ـ منظر أدبي لتركيا المعاصرة – «نقد»

١٠ـ عودة إلى البلقان – «انطباعات الرحلات»

١١ـ على شواطئ الباسيفيك – «مشاهدات و انطباعات»

١٢ـ دفتر السفر – «مشاهدات و انطباعات»

١٣ـ حب بعد الظهر – «مجموعة قصص قصيرة»

١٤ـ جيجي بابا – «مجموعة الأعمال القصصية ١٩٦٧ ـ ١٩٩٠»

١٥ـ شاعر الدنيا ناظم حكمت – «نقد»

حبيبتي استانبول

رويداًرويداً ، بتمهل وببطء ، وكمن يكتشف متحسساً بيديه جسد امرأة غريبة تعرَّفتُ إليك ، مع أنك موجودة دائماً كنت . منذ أن اقتنع (المغاوريون) بأقوال كاهن دلف فجاؤوا إلى سواحلك واستقروا في شبه الجزيرة المقابلة لشاطئ العميان ، بل وقبل ذلك بكثير ، منذ أن بنى الإنسان الأول ملاجئ القصب عند مصب نهر «كاغيت هانَه» في الخليج ، لتحميه من الوحوش الكاسرة ، منذ ذلك الوقت موجودة كنت وحتى الآن .

ليغوس كان اسمك . والمياه الشفافة الرقراقة تحيط بجوانبك الثلاثة . وأسماكك تلمع في مياهك ، والأشجار تحف حفيفاً في غاباتك .

بيزنطة كان اسمك . وفي جانب من شبه الجزيرة مدينة صغيرة كنت ، بقلعتك ، بساحتك ، بحمّاماتك ، بتماثيل آلهتك البرونزية . ومن مينائك الداخلي الهادئ تفتح سفنك أشرعتها نحو البحار الواسعة غير المنتجة . وأناسك الوقورين بجد ونشاط كانوا يعملون .

نيوروما كان اسمك. بأبوابك، بآثارك الرخامية، بأحجارك الضخمة، بميدان سباق الخيول الواسع المترامي الأطراف، بميدانك الفسيح الذي كان يعج بخيول تمثلها الآن خيول نحاسية ذوات لبدات تقف على قوائمها الخلفية متجهة نحو جموع الزوار الذين تغص بهم ساحة سان ماركو في البندقية. مدينة رومانية ذات أبهة كنت، والسفن تفرغ حمولاتها من الرخام والذهب في موانئك.

موجودة دائماً كنت يا استانبول. في زمان ليس قبله زمان، ولا بعده زمان كنت.

القسطنطينية كان اسمك. بأسوارك الثلاثية الصفوف العصيَّة على التسلق، بكوى أسوارك، ببيارق أبراجك، بقصورك، ببيوتك الحجرية المَطَلَّة على البحر. بشعبك المتدين، بكنائسك، بأديرتك، بينابيعك المقدسة، بأيقونات أديرتك، بقساوستك، بملائكتك، عاصمة لإمبراطورية كبرى كنت، والقسطنطينية كان اسمك، وأول قبة سماء مزدانة في التاريخ تبدو من جبل أولوداغ منقلبة على عقبها مثل هوة سحيقة متعلقة بقمة أيا صوفيا حيث الفسيفساء، وأعمدة الرخام الأخضر الضخمة، والصلبان الذهبية، والشمعدانات الفضية، تلمع في الضياء الذي يتخلل إلى الداخل من خلال النوافذ المزنَّرة، فيضيء القاعات الواسعة التي يمكنها أن تستوعب كافة سكان المدينة، ويضيء الجدران، بل ويضيء حتى الدهاليز المعتمة التي لا يعلم عددها إلا الرهبان. في ذلك الزمن كما

اليوم كانت طيور اللقلق تطير من فوقك في موسم الهجرة. لم تكن ثمة مآذن مدبَّبة تشقُّ عنان السماء، لكن الغيوم البرتقالية البنفسجية، وطيور اللقلق الطائرة إلى مكة، وطيور جلم الماء، وطيور الغاق كلها كانت موجودة. وظلُّ برج غالاطا يسقط على أسطح المنازل، والأزقة الضيقة التي تصطف على جانبيها حانات الجَنَويين. بريح الجنوب، بريح الشمال، بقطعان أسماكك التي تبحر من المضيق إلى بحر مرمرة، فريدة كنت، ولا مثيل لك كنت.

موجودة دائماً كنت يا استانبول!

دار السعادة كان اسمك، والأذان يرتفع من أيا صوفيا، والفاتح الذي سيَّرَ السفن في البرِّ يمسك بيده وردةً. والحمائم تشرب الماء من سبل الماء في جامع السلطان أيوب.

دار الخلافة كان اسمك، والأحجار البيضاء تُسوَّى، والرصاص يُذاب في مراجل ضخمة. وعلى نيران الأفران يشوى الخزف الذي تتفتح عليه أزهار الرمان والخزامى فيستحيل ربيعاً مخضوضراً. وفي مخيلة المعمار سنان تتشكل أبعاد ونسب وحجم وقبة جامع السليمانية. وأهلك الأرناؤوط والبوشناق والروم واليهود والأرمن والترك والعرب والشركس والجورجيون يزدادون مع الجنويين والبنادقة وتغصُّ بهم أسواقك المسقوفة. والعميان يعرفون

طريقهم بشمٍّ وتتبُّع روائح التوابل. والسفن المحمَّلة بالقمح تشرِّع أشرعتها متجهة إلى البندقية وجنوه ومرسيليا.

دار الدولة العليَّة العثمانية كان اسمك. والصدر الأعظم والوزراء والباشوات قباطنة البحر وشيخ الإسلام وخازن بيت المال بعمائمهم الثقيلة وبقفاطينهم الفضفاضة يصعدون إلى الحضرة السلطانية. والانكشاريون يتمردون مطالبين برأس أحد رجال الدولة. والأمراء يُخنَقون في الزنزانات. والسلطانات الوالدات وسيدات القصر والوصيفات والجواري والآغوات السود في جناح الحريم صامتين. وعند مدخل القصر ساقية الجلاَّد الدامية تسيل بلا توقف. والبحر كذلك يسيل مغادراً أمام «سراي بورنو» وحيدة أنت تبقين في مكانك. تقع الزلازل فتتهدَّم بيوت وجوامع ومآذن ومدارس وجسور، ولا يبقى منها حجر فوق حجر. وعندما تنهار قبة جامع، أو يهوي سقف قصرٍ ما، تخرج إلى النور فسيفساء بيزنطية. الأوبئة تتفشى في موانئك. وفي المضيق تحترق أكشاكك الصيفية وقصورك وبيوتك الخشبية، لكنها كلها تبنى من جديد. والمواليد الجدد يأخذون مكان الذين قضوا في الزلازل وفي الحرائق وفي الحروب، والذين أهلكتهم الأوبئة. وتمر سنوات، وقرون، وأنت عند ملتقى البحار الثلاثة، ليغوس كان اسمك، بيزنطة كان اسمك، دار السعادة، دار الخلافة، دار الدولة العلية العثمانية كان اسمك. . . واستانبول كان. أي مدينةً كنت. نعم مدينة.

كم سنة مرت؟ كم سنة مضت لم أنظر فيها إلى بحرك؟ ولم أرَ فيها أناسك ، ولم أمشِ في أزقتك وشوارعك ولم أعبر فيها ساحاتك؟والآن بعيداً عنك في زقاق فيغور في باريس ، أنا معك .

قبل قليل رأيت في المترو ملصقاً شرَّعت فيه أيا صوفيا بملائكتها أجنحتها للريح ، كانت مجنَّحة تطير بقبَّتها التي يقال إنها تماسكت بطينة جُبلت بريق سيدنا محمد . وفي ملصق آخر مياهك براقة ، وأنت ببحرك الأزرق ، ببواخرك البيضاء ، بسفنك ، بمواعينك ، بقواربك بقريدسك ، بسرطاناتك ، بأسماكك بحراشفها المبرقشة الملونة ، كنت تبرقين وتلمعين في أشعة الشمس . أياصوفيا والمضيق والفندق والأسماك بـ ٢٠٠٠ فرنك ، الشمس والبحر مجاناً! «إنك الآن في مكان يستطيع الوصول إليه كل من يملك ألفي فرنكاً ، وقليلاً من الوقت . وحدي أنا لا أستطيع الوصول إليك ، إلى بحرك ، ولا أستطيع ملامسة مياه خليجك الوسخة المتعكرة ، ولا مداعبة قبابك ومآذنك وأبراجك . كم سنة مرَّت . . . لم أجلس على مقاهي شواطئك ، ولم أمسح وجهي بجدرانك المشَحَّرَة ، وبأسوارك المتهدمة ، ولم أتسلَّق تلالك وأبراجك . كم سنة مرت لم أسترح فيها تحت أفياء أشجار دِلبكِ!

إني الآن في غرفتي المنزوية المطلة على الفسحة الداخلية لفندق دي سَنس في زقاق فيغور ، أميل على أوراقي البيضاء مفكراً فيك . ها أنت تتراءين لي رويداً رويداً على ضوء المصباح ، هي ذي

قبابك ومآذنك! هي ذي أزقتك المتعرجة، وشوارعك العريضة!هو ذا مدخل المضيق، ومياه الخليج الوسخة! وهو ذا السكون! سكون فناء المدرسة الداخلي، سكون المقابر، وسكون خزانات الماء. هو ذا الضوء!ضوء رمادي باهت ينسلُّ من سماء مغلقة. وشمس تلهب نوافذ أوسكودار. ولهب مرتجف لشمعة تحترق أمام أيقونة الأم مريم. وضوء مهجع النوم الأزرق، ووحدتي! نعم وحدتي! أي حرماني منك وأنا في حضنك! قال شاعر استانبولي كبير عاني الغربة كثيراً، وقاسى الشوق والحنين كثيراً:

«شيئان فقط لا يمكن نسيانهما إلا بالموت: وجه أمنا و وجه مدينتنا».

من بعيد أداعب وجهك الأبيض المدوَّر. وعظام وجنتيك الناتئة، فتحترق أصابعي كلما لامستْ جسدَك المبلل. من رفاتي تولدين من جديد يا استانبول!

١٩٨١

ترجمت في حلب

٢٠٠٢/١٢/٢٦

استانبول « آغابي مو! »

حبيبتي

كانا متعبين في ظلمة الغرفة الضيقة، في نهاية نهار من السفر والمتعة. انسلّ ضوء باهت من بين ضلفتَي الستارة. لمع جلد المرأة المحترق بأشعة الشمس للحظة، ولاح جسدها. فكّر الرجل بأنه لن يستطيع نسيان هذا الجسد المتوسطي العاري المستلقي إلى جانبه، وسوف يفتقده طوال أيام الصيف اللا نهائية، على الشواطئ الرملية، وعلى مقاهي المدينة الباردة المهوية، وفي الليالي، قبل أن يغفو، وخلال نومه الموزّع بين الأحلام والكوابيس. أحسّ بوحدة غريبة، وحدة حلوة، أبعد من الرغبة، وأبعد من المرارة، تلفّ أعماقه، مثل موجة تغمره ولا تجرفه معها. انتقل الضوء من فوق جسد المرأة المتعرق إلى وجه الرجل، ومن هناك تسلّل إلى الجدار فأضاء زجاجة مصباح الليل المغْبَرّة. وبعد لحظة، ما أن داعبت نسائم المساء الستارة حتى غاب الضوء واختفى.

في عتمة الفراش الضَّيق كانا مستلقيين جنباً إلى جنب. مدَّ الرجل يده يريد أن يضيء المصباح، ثم عدل عن رأيه. بقيت يده مترددة في الهواء لحظة. نظر إلى أصابعه، أظافره كلها في أماكنها. فكر في أظافر من مات من أصدقائه، التي لن تنمو بعد تحت التراب. تخيَّل ما فقدوه. وجوه متغضّنة متجهِّمة، أجسام ضعيفة مترهِّلة، نساء مغادرات، فراقات، ميتات مبكرة. . .

وفجأة وكمن شكَّ في حياة الجسد النائم بجانبه، أمسك بفخذي المرأة. أحسَّ على رؤوس أصابعه برعشة البشرة. وقبل أن يدخل في الشِّق الرطب الذي عثر عليه بواسطة يده، أحسَّ بأنفاسها وهي تهمس في أذنه بكلماتها الغريبة المبهمة كما في كل مرَّة. التحما.

كانت الغرفة مظلمة عندما استيقظا. وضوضاء المدينة يدخل عبر النافذة المفتوحة فيملأ أرجاء الغرفة. مزامير، فرامل، أصوات بشرية، صراخ باعة متجولين، رفُّ أجنحة حمام، صافرات بواخر؛ كل شيء يختلط بكل شيء. ضجيج مبهم بعيد يغلظ شيئاً فشيئاً يلف كيانهما.

فكرت المرأة في وجودهما مع بعض، وأرادت أن تحيي في مخيَّلتها ذكريات الأيام التي قضتها مع هذا الرجل الذي صادفته في هذه المدينة الشرق أوسطية التي يختلط فيها القديم بالحديث والماضي بالحاضر، الواقعة بين الشرق والغرب، والمحاطة بثلاثة بحار،

ولا تشبه أي مدينة أخرى بأناسها ، ببيوتها الصفيحية ، بأزقتها الضيقة الصاعدة النازلة ، المنتشرة على مساحة ذات مرتفعات ومنحدرات ، المدينة الصاخبة المتمردة التي تعرفها من كتبها المدرسية باسم القسطنطينية . وعدا بعض المشاهد الباهتة ، لم تتذكر شيئاً واضحاً مع أنها حلمت وخططت لهذه الرحلة منذ سنوات . وتخيّلت استانبول التي عاش فيها أجدادها أكثر من ألف سنة . ورسمت لها في مخيِّلتها مما سمعته ومما قرأته أسطورة تتراوح بين الحقيقة و الحلم .

أحسَّت في البداية بسحابة متغيرة متلونة تنسلّ إلى أعماق ذهنها ، وبألم يتوزع ويترسب منتشراً في وعيها ، ثم انقسمت السَّحابة إلى خطوط عمودية ودائرية ، وبدت صافية . وبمآذنها الطويلة الرفيعة ، وبقبابها المزخرفة ، وبأبراجها ، وبأسوارها ، وببضع ناطحات سحاب تحدَّدت معالم المدينة . تصورت جدرانها الرمادية ، وحمائمها ، وبرودة المقهى الذي احتسيا فيه الشاي بجوار صحن الجامع . وتذكرت مجدداً جثة الهرَّة الطافية على مياه الخليج الموحلة ، اللزجة لزوجة القطران ، فتغضَّن وجهها باشمئزاز . ولما تذكرت أشعة الشمس التي تضرب السفن الراسية خارج الميناء شعرت بارتياح ، و لفَّت جسدها برودة وكأنما مياه البحر الأسود المنسابة من المضيق إلى بحر مرمرة تسري في عروقها .

كانا في سيارة تاكسي ، ومياه لازوردية عميقة تسيل بمحاذاتهما ، والأشجار تكثر وتتكاثف كلما ضاق الطريق ، والبواخر

الكبيرة بحجم مدينة تعبر بسرعة وتمضي تلاحقها النوارس ، مخلفة الزَّبد وراءها. والزوارق الصغيرة وطيور البطريق تغطس في الماء تارة وتظهر أخرى ، وتغيب خلف الزَّبَد الأبيض. والبيوت الخشبية ذوات المشربيات تتداخل بالمباني الإسمنتية ، وتمر أمام زجاج السيارة نوافذ معتمة لشاليه قديم ، ثم أسوار حدائق مرتفعة ، وأزقة ضيقة تنحدر إلى البحر ، ثم أشجار . . . وأشجار. وبواخر صغيرة تنشر شباك الصيد لتجفَّ تحت أشعة الشمس. بواخر صغيرة بيضاء ، وسفن صيادي الأسماك ، وفي لحظة غير متوقعة ، وفيما هما ينعطفان عند إحدى الزوايا ، أو يقطعان زقاقاً ، كانت تظهر أمامهما مدافن أثرية ، وتحت التيجان الحجرية الرائعة كانت الأحرف القديمة ترق وتطول وتتعرَّج. هكذا إلى أن وصلا إلى ميناء صغير ، وفي ظلال الغيوم البنفسجية التي تضرب وجه الماء جلسا تحت أفياء شجرة دلب ضخمة.

كانا يداً بيد في أحد الأزقة. والزقاق ينحدر عمودياً إلى الأسفل ، ويجرّهما ويأخذهما معه. فيمران أمام بيوت خشبية مهترئة ، وساحات خالية. والعجائز برؤوسهنَّ المغطاة اصطففن على النوافذ بين أصص الجيرانيوم والريحان يترصَّدن القطط. ولسبب ما يفضي بهما الزقاق المنحدر باتجاه البحر ، إلى بستان ، وبين شجيرات البندورة والفاصولياء الكبيرة يحاران فيما يفعلانه ، فيضمان بعضهما برغبة.

في شارع صاخب ، و بينما هما يفتحان لنفسيهما طريقاً بين الزحام الفائض عن الرصيف ، يضيِّعان بعضهما . وعندما يلتقيان بعد حين ، يسيران بمحاذاة أبنية حجرية قائمة فوقهما كأنها ستهوي عليهما ، وفي مكان يضيق فيه الشارع يلقيان بنفسيهما بصعوبة إلى ساحة إحدى الكنائس . وفي سكون السَّاحة يستمعان إلى قلبيهما يخفقان بآن معاً خفقات واحدة كأنها صادرة عن قلب واحد . ومن الساحة ينزلان إلى خزان مياه ، على درج حجري تعلو أحجاره الطحالب . وفي رطوبة المياه التي تنزُّ من الجدران البيزنطية القديمة يتبادلان القبلات طويلاً .

كانت المرأة في عتمة الغرفة وحدها مع انطباعاتها عن المدينة ، التي تجوَّلت في أزقَّتها ، وذابت في زحمة أسواقها وشوارعها ، وارتاحت تحت أفياء دلبها ، واستقلت بواخرها وتاكسياتها وباصاتها ذات الهدير الصاخب . هذه المدينة الرائعة التي اكتشفتها برفقة هذا الرجل الذي ينام إلى جانبها الآن ، والذي ولجها قبل قليل ، ومنحها الإشباع ، والذي كانت كأنها نسيت وجوده معها وهو ينتقل بها من ضفة إلى أخرى ، ومن جامع إلى كنيسة ، ومن متحف إلى آخر . كانت المدينة بأزقتها المتعرِّجة ، بقناطر مياهها ، بممراتها العُلوية والسفلية ، بأسوارها المتهدمة جزئياً ، تلفُّ أنوثتها فتتمكن منها بإحكام وتنقض عليها . فتحسُّ كأن الأبراج والمآذن تطعن جلدها ، وبألم خفيف يسري في أنحاء جسمها .

قال الرجل:

ـ لستُ أنا من تريدينه فعلاً .

لم تجبه المرأة. خطرت ببالها أيقونة قديمة بهتت ألوانها ، تذكرها بأيقونة معلقة عند رأس جدَّتها في أثينا فيها وجه الأم مريم الطويل الناحل مكدَّر ، وهي تحتضن الطفل عيسى الذي ليس من روحها أو من جسدها والملائكة على جدران أيا صوفيا جاهزون للطيران ، وبريق أزرق يلتمع في نظراتهم المخيفة. وراهب عجوز يقلي في المقلاة سمكاً في ساحة دير متطرف . ورأت بدهشة الأسماك الملونة المغطاة بالطحين تقفز في مياه حوض جانبي وتختفي فيه. ودوي مدافع ينبعث من الأسوار.

أكمل الرجل قائلاً:

ـ لست أنا الذي كنت تلاطفينه وتداعبينه طوال الليالي.

تسكت المرأة. لا ترغب في أن تجيب هذا الرجل الغريب المتعب بلغتها التي لا يتكلمها. وتفكر بالحياة التي خلف ستارة الغرفة المغلقة ، وبزحام المساء الذي يتكاثر رويداً رويداً في الخارج. وتتراءى لها المدينة بأزقتها ، بشوارعها ، بوسائط النقل التي تعبر شوارعها ، بجدرانها ، ببيوتها ، بغرفها ، بالناس العراة الذين يمارسون الحب في

غرفها ، و كأنها تسيل وتمضي في بحر من الضياء . وهي تعرف أنها لن تستطيع ترك نفسها لهذا المسيل .

قال الرجل:

ـ سوف تبحر الباخرة غداً صباحاً باكراً جداً . يجب أن تستعدي .

الاستعداد . يعني طي كل شيء ووضعه في الحقيبة . فهمتْ بأنَّ هذا الفراش المبعثر ، وغرفة الفندق ، وهذه المدينة التي تسيل في الخارج ، والتي صارت منذ سنوات قطعة من كيانها ، وتوضَّعت فيما وراء معرفتها . وأموراً كثيرة كانت تعتبرها من نفسها ، تنفكُّ كلها رويداً رويداً عن جسدها ، و تنفلت وتنساب من بين يديها .

همست للرجل:

ـ استانبول آغابي مو !

التحما من جديـد .

١٩٨٥

ترجمت في حلب

٢٠٠٢/١٢/٣٠

بيت في أثينا

إلى آ. پلوتيس

أتينا! لفظتها خطأ مرة أخرى. ليست أتينا، فبعد حرف (أ) يجب أن أمدَّ لساني من بين أسناني وأُخرج صوتاً بين حرف (ت) وحرف (س). التشديد يجب أن يكون على الحرف الثاني. ليست أثنا بل أثينا! حسناً ولكن هل هذا اسم المدينة أم اسمك يا أثينا؟ إذا كان اسمك فيجب أن أشدِّد على الحرف الأخير. اعذريني إذ لم أتعلم حتى الآن كيفيَّة لفظ اسمك كما تريدين. فهذا التشديد يختلف كليَّاً عن البناء الصَّوتي للغة التركيَّة! على كل حال. . . أخيراً تحقَّق الحلم. فهأنذا بعيد عنكِ في المدينة التي ولدتِ فيها.

أزقة طويلة، طويلة جداً، تتقاطع متعامدة، شوارع عريضة، ساحات. . . مدينة ناصعة البياض، بلا أشجار. رأيت الجبال المقابلة، التي تعرض وتتسع في الأسفل وعلى عمق مئات الأمتار،

تنتصب مثل السَّاحرة ميدوسًا. البحر من بعيد، أزرق تحت سماء الصَّيف. إنه شديد الزرقة لدرجة محيِّرة. «سوف ترى البحر في بلدي، فلا تعجب!» لكن رائحته لا تصل إلى القمَّة التي أتواجد عليها. كان يضيع بين البنايات المتَّكئة على بعضها في أزقة الميناء الضَّيقة، ويتراءى من بعيد بلونه الأزرق الداكن مثبتاً وجوده، دون أن يستسلم لأحد مطلقاً. مدينة على ساحل البحر بعيدة عن رائحة الطَّحالب. ولا تعتبر على ساحل البحر تماماً فقد شيِّدت بين التلال في الداخل قليلاً، مدينة، ليس في أزقتها الصَّاعدة النازلة، ولا في شوارعها ذات الإسفلت الذائب في الحرِّ، ما يدل على أنها متأثرة بالبحر، مدينة مثل شجرة وحيدة تيبس في القفار، وكلما يبست انطوت على نفسها، وانسحبت إلى منعطفاتها وشرفاتها وشِباك نوافذها الخشبيَّة، بل وحتَّى إلى داخل غرفها الضَّيِّقة الواقعة قبل صالاتها الباردة. هوائيَّات التلفزيونات تتماوج في لهيب حرِّ آب. الأزقة التي تتقاطع متعامدة مقفرة. الترولّلي باصات الصفراء والسيارات والباصات تسيل في طول الشَّوارع بصخب وضجيج منهك للأعصاب، حتى وصولي إلى التلة التي أنا فيها حيث قلَّ وخفَّ وتبعثر في الفضاء. الساحات عارية وأشجار السَّرو عالية في الحدائق. پَترالونا، كولوكينتو، پانكراتي، كوپونيا... كيفيسيا، پاتيسيون، ليوفوروس، الكساندراس، فاسيليس صوفياس... ما أحلاها وما أرقَّها من أسماء إنها كجسمك البضِّ، كجسمك

الأسمر المحروق، كنظراتك الحارَّة. آمبلو كيبي، كيپسَكلي، كولوناكي. . . كلها موجودة كأصوات بالنسبة لي. لأنَّني لم أجلس في مقاهيها، ولم أتجوَّل فوق أرصفتها عديمة الظلال، وفي أزقِّتها الضَّيِّقة. اومونيا، بانَبيستَميو، ستاديو. . . هذه الكلمات تهمسينها أنت في أذني، بلغتك التي لم يستطع لساني إتقانها، وبإعطاء مخارج الحروف والمقاطع في لغتك الأم حقها، أسمع صوتك قادماً من وراء الجبال والبحار والأنهار والوديان والطرقات التي لا تنفد ولاتنتهي وأنت تصفين لي مدينتك التي ولدت فيها و غادرتها قبل أن تكبري، بل أجبرت على مغادرتها، ولم تستطيعي العودة إليها للأسباب نفسها رغم مرور السنين. فشوارع أثينا، وساحاتها، وبيوتها البيضاء بالنسبة لك أيضاً عبارة عن بضع كلمات، وبضع صور لم تعرفيها. مع ذلك فإنك تصفينها.

أثيناك تشبه قليلاً بيوت الأغنياء في أناضولنا الغربي، فهي عبارة عن بيت من طابقين داخل حديقة. ومصطبة حجرية تُفرش بالبُسُط ليلاً ويُجلس عليها، في الحديقة أشجار، وفي نهاية الأشجار باب أزرق بسقاطة ثقيلة، لم تستطيعي فتحه بمفردك لأن قامتك لم تساعدك، ولهذا كنت تعبرينه مع أبيك.

«رأيت أبي للمرَّة الأخيرة أمام ذلك الباب الأزرق. كان الوقت ليلاً. أخذني في حضنه وضمني إلى صدره. مازلت أذكر وخز لحيته الخشنة في جسمي. لم أنسَ نظارتيه

الضخمتين ، ولا يديه المشبعتين برائحة التبغ ، ولا الإرهاق المرتسم على وجهه . فيما كنتُ في حضنه ، ضمَّ أمي إليه بيده الأخرى . بقينا هكذا فترة . كأنَّ الزَّمن قد توقَّف ، ومُسح كل شيء من الوجود ، واستحلنا تمثالاً من الرُّخام . وبعد لأي تذكَّر وجود رجال الدَّرك ، فالتفت إليهم وقال: «بإمكاننا أن نذهب» .

أذكر ثلاثة رجال يسيرون تحت ضوء مصباح الزقاق الخافت . في الوسط ، بين الدَّركيَّين المسلَّحَين ذاك كان أبي . عندما انعطفوا في المنعطف لم أكن أعرف مطلقاً أنها المرة الأخيرة التي أراه فيها ، وأنه سيعيش من الآن فصاعداً في الصُّور . كانت أمي عند الباب تبكي» .

كنتِ قد أريتني بعضاً من صور أبيكِ . رجل قوي البنية ذو يدين ضخمتين . تساقطت شعراته وتبعثرت على جبينه ، ينظر إلى الأمام مباشرة . وخلف نظارتيه كانت عيناه سوداوان فاحمتان تشعَّان . وفي الخلف جدران بيضاء ، ونافذة شُرِّعت شباكها الخشبيَّة . وعلى حافة النافذة اصطفت أُصص الأزهار . لابد أنها صوَر التُقطت في حديقة بيتكم في أثينا . وفي صورة قديمة كان يمسك بيد الجد ، ويدير وجهه إلى جانب قليلاً . بلباس البحَّارة كان بين الثامنة والعاشرة من عمره . الأب والابن تحت سماء ملطخة بالصُّفرة . والنسوة يقفن في الخلف بقبَّعاتهن الواسعة ، وأُلبستهنَّ

البيضاء. جدّتك وعمّاتك. ولو لم تكتبي فوق الصورة كتابة انمحت مع مر الأيام، بأن السماء الملطخة من عمل مصور عائلي في كوردون في ازمير، لما فهمت يوماً السبب الحقيقي لما تحملينه من مشاعر ود نحو تركيا ونحو الأتراك.

«في النزاع الكبير كان أبي الشخص الوحيد الذي نجا من أيدي الأتراك. لا تفهمني خطأ. فلم أصدِّق أبداً ما حكي عن بربريّة الأتراك. أبي أيضاً كان ينفر من مثل هذه الأحكام المسبقة. عندما انقلب الزَّورق غرق أفراد العائلة الآخرون. أبي كان الوحيد الذي استطاع العوم والسِّباحة في ذلك الظرف المرعب حتى السَّفينة المنتظرة بعيداً».

إني أتخيل ازمير أيلول ١٩٢٢. ضوء المدينة المحترقة يسقط على الخليج. آلاف الناس من شبان وكهول ونساء وأطفال في الميناء، يركبون الزَّوارق ويهربون من المدينة. بعض الزوارق المحمَّلة أكثر من طاقتها سرعان ما تنقلب في عرض البحر، ولكن ليس لدى أحد الوقت لإنقاذ السَّاقطين المتبعثرين في الماء. والذين يسبحون ويحاولون الصعود إلى زوارق أخرى، يمنعهم ركاب الزوارق ويدفعونهم إلى البحر. إني أرى المعاول التي تهوي على الأيدي المتشبِّثة بكل قوَّتها بأصابع حافة الزَّورق تعلقاً بالحياة وإنقاذاً لأرواحها. فيصطبغ سطح البحر بالأحمر فجأة. ثم تأتي موجة عالية

بعلو المنارة فتأخذ كل شيء وتمضي. ربما لم يحدث هكذا تماماً، ولم يقطع أحد الأيدي المتشبِّثة بأصابع حافة الزورق.

لابد أن هذه الخاطرة التي خطرت في ذهني الآن وأنا أكتب إليك من مدينتك أثينا، تتعلق بغرق الباخرة تيتانيك. ولكن أما كانت ازمير أيلول ١٩٢٢ بالنسبة لآلاف العائلات مثل عائلة أبيك باخرة تيتانيك تغرق؟

«من أراد هذه الحرب؟» كنتِ قد سألت هذا السؤال، «أهي الدول الامبرياليَّة التي حرَّضت الجيش اليوناني على التَّوغُّل داخل الأناضول، أم الشعبان اليوناني والتركي اللذان عاشا معاً مئات السنين فتداخلا ببعض وتمازجا؟» وللأسف هذا السؤال مطروح اليوم أيضاً. فالبواخر الحربيَّة تمخر عباب بحر إيجه، والطائرات التي تحمل الموت بين طيات أجنحتها الفولاذية تشق زرقة السماء. وتعرفين أنَّنا لا نستطيع العيش في بحر آخر وتحت سماء أخرى، لأن هذه الشمس امتزجت بالماء الذي نشربه، ولأن ضوءها صار قطعة من بصرنا. منذ مئات السِّنين ونحن نحرث هذا التراب نفسه، ونقطف الزَّيتون من الأشجار نفسها. كنا أحياناً نتشاجر، وأحياناً أخرى كنا نشبك الأيدي ونرقص وندبك ونغني معاً. بيوتنا متداخلة، وعنزاتنا مختلطة ببعض. ولقد فهمت أهمية البيوت، لا عندما كنت في باريس أنظر إلى صوَر عائلتك، ولكن عندما قرأت أشعار شاعر

يوناني من أكبر شعراء عصرنا يورغو سفاريس الذي ولد في ازمير قبل أبيك بعشر سنوات، والذي حمل بين طيَّات نفسه و طوال عمره آلام الاغتراب عن الأرض والوطن. والآن عندما أنظر إلى المدينة من إحدى تلال أثينا، أرى في الأسفل العمارات الحديثة. والبنايات المطبَّقة طوابق فوق طوابق، وأتخيَّل أباك وقد لجأ مع آلاف المهاجرين من الأناضول، إلى ريف نِياسيميرنِيا المعدم، والأيام التي قضاها متنقلاً من عمل لآخر لكسب ثمن رغيف الخبز. عائلة كاملة في غرفة واحدة، المرض والجوع. العاطلون عن العمل في الأزقة. وسعي أبيك للتأقلم مع الظروف الجديدة، ومتاعب الحياة الجديدة غير المتوقعة، ومعاناته التي عاناها لتخطي هذه المتاعب. وأتخيَّل الأمل المشرق، بعد أيام القهر، وهو يشيع الدفء مثل رغيف خبز وفنجان سحلب. ثم انتسابه للحزب، والاحتلال الألماني، والحرب الأهليَّة...

«حتى زواجه من امرأة أثيناويَّة غنيَّة لم يضبط أبي. كان بإمكانه أن يعيش حياة هادئة مريحة في البيت الأبيض بنوافذه ذات الشِّباك الخشبية الخضراء الذي بقي من عائلة أمي والذي قضيت فيه طفولتي، لكنَّه مات بعيداً عن بيته وعن أحبابه، منفياً فوق صخرة وسط البحر؛ حيث لا يعيش كائن حي سوى السُّحليَّات والدغلات السَّوداء، وهو ينظر إلى السُّفوح الوعرة التي تشويها حرارة الشمس نهاراً، وتحِتُّها وتعرِّيها الرياح المجنونة ليلاً. ذلك ما لم أفهمه».

أنا أفهم ذلك يا أثينا! فأوديسوس لم يكن سعيداً عند كاليپسو . بأشجارها الحمراء ، بحَورها ، وسروها ذي الرائحة العطرة ، وبِبوَمها التي بنت أعشاشها في الغابة ، وبحدآتها ، وبغربانها الثرثارة وبطيور البحر التي تستخرج غذاءها من المحيطات المجدبة ، لم يكن سعيداً رغم وجود امرأة تبهر الأنظار بجمالها في المغارة التي تنبع منها أربعة ينابيع ورغم اشتعال نار خشب الصنوبر في المطبخ . العشب أمام المغارة اخضرّ طريّاً ، وبين الأعشاب أزهَرَ البنفسج ، واخضرّت التوابل . وعلى البعد منه قليلاً يبدأ كرم امتدت أغصانه و فروعه ، وتدلت عناقيد عنبه . وذاك كان يعرف أنَّ من يشرب من شراب هذا الكرم ينال الخلود . وقد وعدته الإلهة الجميلة ابنة أطلس أنها سوف تمنحه الخلود إذا بقي عندها وصار رجل بيتها . لكن متعب الحرب اوديسوس ابن الصابر لايرتيس الذي عانى كثيراً من المتاعب ومن الفراق ، اختار الارتماء في بحر بلون الشَّراب ، متنقلاً من جزيرة إلى جزيرة ، ومن مغامرة إلى مغامرة إلى أن يحقق هدفه الكبير ، قائلاً: «اعذريني أيتها الإلهة المتعالية / فقد تصدَّيت بصدري لكثير من المخاطر والمتاعب/ في البحار وفي الحروب قبل الآن / كذلك أنا جاهز للمتاعب القادمة بعد الآن» . أنا أفهم ذلك يا أثينا!

«لا أعرف لماذا أتخيَّل أبي دائماً ، ذلك الرجل القوي البنية ذا اليدين الضخمتين الذي ضمَّني إلى صدره أمام باب الحديقة ، مع أنه كان جلداً وعظماً عندما مات . وجنتاه هزيلتان ، وآثار حروق

تبدو على وجهه . . . عندما أحضروا جثته من الجزيرة ومدّدوها في الصالة في البيت ، كانت عيناه غائرتين كحفرتي بئرين عميقين بلا قرار . كنت حينها في الحديقة ألعب بدُماي تحت ظل شجرة التوت ولاعلم لي بشيء . كان في جبينه جرح عميق . قالوا بأنه سقط أثناء تمديده أسلاك الكهرباء و ارتطم رأسه بصخرة صلبة . طبعاً أمي لم تصدِّقهم . أخفوا موته عني . لمدة طويلة بقيت أعرف أن أبي في المنفى في إحدى الجزر . لا أصدق أنه سقط أثناء تمديده أسلاك الكهرباء ومات . فأبي الذي سبح من ازمير حتى الزورق المنتظر بعيداً عندما كان عمره عشر سنوات ، والذي سار أياماً وأياماً في الجبال أثناء الحرب الأهلية ، والذي يجيد مختلف الأعمال ، من يدري كيف قتلوه؟ هل ضربه جندي بأخمص بندقية ، أم مات أثناء التعذيب؟ أتصوَّره أحياناً وقد غطت الدماء وجهه ، وانزاحت نظارتاه إلى طرف . وأحسُّ بحاجة ماسَّة إلى أن آخذ رأسه بين ذراعيَّ وأضمَّه إلى صدري . أريد أن أواسيه كابني ، وأن أحمي أبي من المخاطر . كان في الثامنة والثلاثين عندما مات . فكر بأنني سأصبح عن قريب في العمر الذي كان عليه أبي عندما مات . أما هو فسيبقى ذلك الرجل القوي ذو اليدين الضخمتين ، الذي أخذني بين ذراعيه وهو في الثامنة والثلاثين» .

البارحة عندما كنت أنزل من ساحة سينتاغما وفي وسط أحد الشوارع تماماً ، برزت أمامي كنيسة بيزنطية قديمة منحشرة

بين البنايات العالية. أعرف أنك لا تحبين الكنائس. لكن هذه كانت كنيسة صغيرة، سقفها مغطى بالقرميد الأحمر. لا فرق بينها وبين أي دكان أو بيت. كقطعة من أفراحنا وأحزاننا التي نعيشها في هذه الحياة. كانت الشموع مضاءة عندما دخلت. في المواجهة تماماً رأيت مريم. عيسى على ذراعيها طفل صغير التفَّ بعنق أمه، ولصق خدَّه بخدِّها. تداخلا ببعض في عتمة الكنيسة ذات السقف المنخفض، وبسعادة القرب والتوحُّد في الجسد نفسه ذابا وغابا في الفراغ المضاء بضوء الشموع المرتجف. ومن رداء مريم الأزرق ذي الأكمام الطويلة، ومن جسم عيسى الوردي، تشكل في الخلفية خليط لون ممحي. ما كانا موجودَين. كانت نظراتهما ووجهاهما وأيديهما موجودة، أما هما فما كانا موجودين. ما كانا من هذه الدنيا. في زاوية الأيقونة العليا كتبت عبارة «ـــ ـــ» وإلى جانب هذه الأحرف الرومية طيور تطير. إنها شحارير، ربما هي طيور السنونو، وربما هي طيور غير حقيقية، طيور لم يرها و لن يراها أحد. وفي جانب، رأيت عيسى على أيقونة أخرى. هذه المرَّة لم يكن في حضن مريم، كان وحيداً على الصَّليب. بذراعيه الرفيعتين الممدوتين إلى الجانبين، كأنه يرتفع إلى السَّماء. رأسه مائل إلى جانب، وعيناه مغمضتان، وجسمه العاري مشدود كأنه يتحمَّل آلاماً في غرفة التعذيب. وخلفه بضعة أشجار هنا وهناك، و أسوار

مدينة مبنية في الصحراء. السماء صفراء. مريم تبكي و قد تشبَّثت بقدمي ابنها.

أعرف أنك لا تحبين الكنائس والأيقونات. ولكن لو رأيت هذه الأيقونة لفهمت لماذا أردت أن تضمّي أباك إلى صدرك، ولأدركتِ كم لهذه الأحاسيس الداخلية التي لا تقاوَم من مكانة هامة في ثقافتك. الطرقات الصاعدة إلى جلجلة كثيرة ومختلفة، لكن الصليب لم يتغيَّر منذ ذلك الزمن. لابد أن هذه الأيقونة كانت موجودة فوق سريرك في بيتكم في أثينا، وإذا لم تكن فوق سريرك فلا بد أن تكون فوق سرير أمك أو جدَّتك؛ عيسى الطفل الصَّغير. أما على الصليب فكان وحيداً وليس في حضن أمه. هل كانت هذه كلمات دعاء يقول «ربي لماذا تركتني؟» أم أنها وحدة الموت؟ لكننا لسنا وحدنا يا أثينا! أبوك أيضاً لم يكن وحيداً. فعندما وقف قلبه الذي كان يخفق من أجل الملايين، كانت قلوب الملايين تخفق لأجله.

خرجت من الكنيسة وسرت باتجاه البحر. لكن البحر كان بعيداً جداً. الإسفلت يذوب بحرارة شمس آب. تجوَّلت في الأزقة التي لا ظلال فيها دون أن أصل إلى البحر. لا أذكر الآن إلى أين ذهبت، وأيَّ الساحات عبرت. لكني رأيت أن أثينا بأزقتها المتشابهة، وبمقاهيها وبحدائقها، ليست مدينة جميلة من مدن البحر

الأبيض المتوسط. على كل حال ما زالت هذه المدينة بالنسبة لك عبارة عن بيت مكوَّن من طابقين بشِباك نوافذ خشبية خضراء.

«بعد وفاة أبي، باعت أمي البيت بمحتوياته. واصطحبتني معها وهاجرت إلى باريس. إني أعتبر نصف فرنسية، لذلك أنا متعلِّقة بوطني لهذا الحد. حسب أقوال أقاربنا، فإن بيتنا ما يزال قائماً في مكانه القديم. إذا مررت بأثينا يجب عليك أن تذهب وتراه».

عندما صعدت إلى سيارة أجرة وأعطيت السائق العنوان لم يكن صعباً العثور على بيتك ببابه الأزرق ذي السقاطة الثقيلة الذي فتحتِه دون الحاجة إلى مساعدة أبيك، وغادرتِه بلا عودة. الزُّقاق عبِّد بالإسفلت. وبدلاً من المصباح ذي الضوء الخافت الذي رأيت أباك للمرة الأخيرة تحته، وضع مصباح نيون. بيتكم لا يزال قائماً في المكان الذي دللتني عليه. بين أبنية حديثة ارتفعت على جانبيه. كانت شِباك نوافذه الخشبية الخضراء مغلقة. لم أفتح الباب الأزرق الذي بهت لونه، وأدخل إلى الحديقة. عندما نظرت من فتحات السُّور رأيت أعشاب الحديقة يابسة، وأوراق شجرة التوت أكلتها الديدان. حزنت لشجرة التوت التي كنت تلعبين تحتها بدُماك ولا علم لك بشيء يوم أحضرت جثة أبيك من منفاه بين الصخور العاتية النابعة من وسط البحر، ومدِّدت في صالة بيتكم الباردة. اعذريني يا أثينا! إذ لم أستطع الجلوس تحت شجرة التوت والتفكير

بك بعيداً عن ضوضاء المدينة ، كما وعدتكِ . فالديدان ابتلعت أوراق الشجرة منذ زمن بعيد ، وتغلغلت في جذعها . والحديقة صارت صحراء قاحلة ، يبس عشبها وتشققت تربتها . من يدري ، ربَّما غطَّت شبكات العنكبوت جدران هذا البيت المغلق النوافذ بإحكام ، والذي أمضى فيه أبوك أياماً حلوة ولو قصيرة ، وهو الذي لم يعرف معنى البيت ، بعد أن احترق بيت أهله في ازمير ، ودفنت عائلته في مياه الخليج . وربما غطَّت الأتربة صالاته وغرفه المرتفعة السُّقوف ، وصناديق أمك المطعَّمة بالفضَّة التي كانت تعتني بها وتحميها كعينيها ، وتخاف عليها حتى من نفسها ، وربما أكل العِثُّ السجاد وأغطية الأرائك ، ومخامل القلاطق . لم تطاوعني نفسي أن أدخل الحديقة وأن أجلس قليلاً تحت شجرة التوت ، ثم أن أقرع الباب وأعَرِّف بنفسي . اعذريني يا أثينا! إذ قفزت إلى سيارة أجرة وجئت إلى هنا إلى قمَّة ليكاڤيتوس حيث أستطيع أن أرى المدينة من علٍ ، وأشاهد من بعيد الأحياء والأزقة والساحات غير المشجَّرة التي تهمسين في أذني بأسمائها من باريس . إني أكتب إليك من ليكاڤيتوس في أثينا . لكن كلامي ليس موجهاً إليك ولا إلى الشعبين اليوناني والتركي . كلامي موجَّه إلى إلهة الحرب التي تحملين اسمها . أثينا الفتاة الصَّبي الفتاة التي ولدت من رأس زيوس إني أخاطبك! دعي سهمك الرفيع ، ورمحك النحاسي جانباً ، وعلقي إلى سماء اوليمپوس المقدَّس ،

درعك الشَّبيه بنظرات جورجون الذي يحيل من ينظر إليهم إلى حجارة . وانتعلي نعليك الذهبيين وانزلي إلينا نحن الزائلين ، واسقي شجرة الزَّيتون التي غرستها في البارتينون رداً علي قسوة پوسيدون الذي هيجَّ البحر الطافح بالأسماك بمذراته الثلاثية الاسنان ، وسترين الرُّخام يخضوضر منه السَّلام .

١٩٨٣

تمت الترجمة في حلب

٢٠٠٦/٥/٣١

ســاحة پوشــكين

« مات الشاعر»

إني أنتظر تحت السَّاعة. هل ستأتي يا ترى؟ الشمس تضرب نوافذ البنايات المحيطة بالسَّاحة. ما زال هناك وقت طويل على إشعال المصابيح. لا مصابيح النيون، وإنما مصابيح الشوارع الباقية منذ عهد پوشكين. الازدحام يشتدُّ مع مرور الوقت. أنتظر أمام تمثال پوشكين وفي يدي قرنفلة حمراء. الفتيات الخارجات من المترو يقتربن لكن تانيا ليست بينهن. بقبعاتهن على رؤوسهن وبجزماتهن الأنيقة يتجهن نحو المكان الذي أقف فيه. ويرتمين بسعادة بين أذرع الشُّبَّان الذين ينتظرونهن تحت السَّاعة. أقف وحيداً. عندما تجلسون يكون هناك عموماً شخص ما بجانبكم. فإذا كنتم في المقهى يأتي النادل. وفي المطعم يأتي شخص ويطلب السماح له بالجلوس إلى طاولتكم. وفي الحديقة، فإن الموظف المتقاعد الجالس على أحد

المقاعد الخضراء في حديقة مونت سوريس بباريس مثلاً يقرأ جريدته سوف يزيح نظره عن أخبار الحروب المكتوبة بالخط العريض، وينظر إليكم ويسألكم عن الساعة بلغة تعرفونها. في تلك اللحظة ستكون الشمس على وشك المغيب خلف الأشجار على حافة بحيرة البجع. وبعد قليل سوف يخيم على الجو صمت مريب. وعندما تسودُّ المياه ينسحب الناس، ولن يبقى أحد في الحديقة. ولكن عندما تجلسون سوف يكون هناك عموماً أحدٌ ما بجانبكم. لن تكونوا وحيدين.

واقفاً على قدميَّ أنتظر. هل ستأتي يا ترى؟ كم هو ظريف پوشكين داخل معطفه النحاسي! الشمس تضرب شعره الأجعد، وتضيء التقاسيم الدقيقة في وجهه الملتفت نحو الأرض.

«مات الشَّاعر»

ممن سمعت هذه الجملة لأول مرة؟ لا شك أنَّ أحداً ما لم يهمس بها في أذني أثناء انتظاري تانيا تحت السَّاعة في ساحة پوشكين. أجل هكذا، ففي هذه البلاد التي لا أعرف لغتها لا يمكن لأحد أن يقول لي«مات الشَّاعر». حتى لو قال ذلك فإنني لن أفهمه. جئت إلى هذه المدينة لأتتبَّع موت شاعر في منفاه، ولكي أجمع الرماد الذي نثر من بعده و هو الذي قاسى كثيراً وتغرَّب كثيراً، وجذوره ممتدة في تراب الأناضول. الوقت ليل. استقررت في فندق فخم متلألئ الأضواء. وفتحتُ ديواناً يتضمن آخر أشعار الشاعر،

كنت قد جلبته معي، وبدأت أقرؤه. كان يقول: «دوري قادم / سوف أقفز فجأة إلى الفراغ / فقد أرسل الموت لي وحدته قبل أن يأتي هو» ويقول: «سوف أموت، اعذريني سوف أموت، وأنت سوف تمزِّقين الكرة الزجاجيَّة الحمراء وتخرجين منها، وسوف تنزلين إلى إحدى الساحات المثلجة». أغلقت الكتاب وخرجت إلى شرفة غرفتي. كان الليل مضيئاً. وفي الأسفل كانت ساحة مثلجة تمتد من حافة الأبراج الرفيعة، والفتحات الضيِّقة، والأسوار ذات القرميد الأحمر. لم يكن في الساحة أحد. وعلى ضوء القمر رأيت كاتدرائية تلمع بقببها الصغيرة الملوَّنة. وإلى الأمام قليلاً، بعد الأسوار كانت القباب المذهبة بصلية الشَّكل. صليب برج طويل جداً، يرتفع عالياً في السماء، هذا البرج سأعرف فيما بعد أنه برج جرس إيقان الرهيب. وبجانب الصليب نجمة حمراء يسطع ضوؤها فوق مياه النهر المتجمِّدة. لكنَّ الصبيَّة التي عشقها الشاعر قبل موته «ذات الشَّعر الأصفر كالتبن، والأهداب الزرقاء» لم تكن موجودة في السَّاحة. ما زالت داخل الكرة الزجاجية الحمراء. أما السَّاحة فكانت خالية تماماً. الظلال طويلة تحت ضوء القمر، والأزقة بيضاء ناصعة، كل مكان ناصع البياض.

عندما ذهبت إلى بيت الشاعر صباح اليوم التالي، فتحت الباب سيدة شقراء مدوَّرة الوجه، عرفت أهدابها الزرقاء، وشفتيها المكتنزتين ويديها البيضاوين. كانت قد كبرت قليلاً. ورانت وحدة

مخيفة على عينيها . نظرت في وجهي بشك . قلت لها «لقد عرفتك ، أنت زوجة الشاعر . . . » ارتاحت عندما سمعت كلامي باللغة التركية . وبلغتها وبصوت ناعم جداً ، تكلمت كالهمس كلمة . دخلنا إلى الداخل . لم يتغيَّر أيُّ شيء . كأنني أعرف هذا المبنى . جلسنا في الصَّالة . على الجدران لوحات زيتيَّة . فارس ذو قلپق خشن ، يقود حصانه بأقصى سرعة ، وبجانبه رجال ذوو نظرات جامدة . رجال ذوو أيد وأرجل ضخمة وقد غطاهم الغبار . وفي المقابل تماماً قريباً من النافذة بساط تتماوج بين نقوشه عينا الشاعر الزرقاوان ، وشعره الأحمر . جلسنا صامتين فترة طويلة . ثم استأذنتُ . سارتْ معي حتى الباب . وقبل أن أخرج ألقيت نظرة على غرفة الشاعر . لم يتغير أي شيء . أراجوز وعيواظ على زجاج النافذة المطلة على الحديقة . على الطاولة آلته الكاتبة ، وبعض الأوراق المبعثرة ، وقصيدة شعر بقيت في منتصفها . كأنني أعرف هذه الغرفة . وفجأة قالت لي بلغة أعرفها «مضت عشرون سنة . لم ألمس شيئاً منذ عشرين سنة ، كان قد نزل إلى الأسفل ليأخذ صحف الصباح ، بينما كنت في المطبخ أعدُّ الشاي ، انتظرته على أمل أن يعود بعد بضع دقائق . لم يعد . ومرَّت الأيام والشهور والسنون . ولم يعد» .

تجمَّدت أمامها . إذن فقد مرَّت عشرون سنة . «الشكر أن هذا الفراق أيضاً ، قد انتهى ، إني عائد/ لكن بداخلي ليلة فراقنا الكبير/ بداخلي ألم انعدامي عنك/ بداخلي وحدتك» . صعدت المصعد .

وقبل أن أغلق الباب تصافحنا. فقالت «بلِّغ سلامي إلى أصدقائه». أومأت برأسي بالإيجاب. انشدَّت شفتاها، وتجعَّد وجهها بمرارة. التفت فجأة بعنقها وقبَّلتها من وجنتيها وودعتها. وفيما كان المصعد ينزل بي إلى الأسفل، خلت أنني أسمع صوت الشاعر من جديد، صوته الرفيع الذي سمعته كثيراً من الأسطوانة، كان يتساءل «هل ستخرج جنازتي من بيتي؟ / كيف ستنزلونني من الطابق الثالث؟ /التابوت لا يسعه المصعد / أما السلالم فضيِّقة».

قبل أن أغادر المبنى نظرت إلى صندوق البريد. عيناه الزرقاوان مخمورتان، شعره الأشقر المسدول منكوش، ورداء نومه المزموم يغطي جسمه الفاتر العاري. فكرت بالمرأة التي نزلت من الطابق الثالث بانفعال قبل عشرين سنة، وبارتعادها أمام صندوق البريد هذا، حيث نزل الشاعر ومدَّ يده ليأخذ صحف الصباح فتكوَّم الصندوق فوقه. هل صرخت ناظ يـ يـ يـيم في تلك اللحظة يا ترى؟ أم أنها ارتمت فوق الميت دون أن تنطق بكلمة؟

تحت السَّاعة أنتظر تانيا. الفصل ربيع في موسكو. مع ذلك تساقط الثلج طوال الليل. لكنَّ الشمس أشرقت مع الصباح الباكر. ضوء رمادي باهت ضرب فراشي. نهضت وارتديت ملابسي. عندما نزلت إلى الأسفل كان الازدحام شديداً في السَّاحة الحمراء. مررت من بين المعاطف ذوات قبَّات الفراء ومشيت. دخلت أحد

المقاهي في محلة كويتوغراد. أحضروا لي شاياً من «السَّماوَر» الفضِّي الذي تتصاعد الأبخرة من غطائه وفيما كنت أحتسي الشَّاي تذكرت استانبول وكيف كنا نحتسي الشّاي بلون دم الأرنب على طاولة قصيَّة في حديقة الجنَّة «جنَّت باهچاسي». برج الفتاة ناصع البياض في الأسفل، البواخر تعبر عن جانبيه، البحر يمر ويعبر من أمام «سراي بورنو». جسمي يتلوَّى ألماً كلما وخزته أبراج قصر «طوب قاپي» الصغيرة الرفيعة. هذه المرَّة أجلس وحيداً على الطاولة التي جلست إليها وإياك. كنت أعرف أننا لن نلتقي ثانية. وفي مقهى محلة كويتوغراد كنت وحيداً أيضاً. بعد فنجان الشَّاي الثاني نهضت من مكاني. تجوَّلت في الأزقة حتى الظهيرة. أزقة هذه المدينة لا تشبه أزقة استانبول الضَّيِّقة النازلة إلى البحر. إنها عريضة جداً، وطويلة جداً. الأبنية الحجريَّة كثيرة في كل مكان. والشَّاحنات أكثر من السَّيَّارات الخاصَّة.

حوالي الظهيرة ذهبت إلى مقبرة نوفوديفيتشي. في الباحة تحدَّثت إلى رجل مسن كان يجرف الثلج. آذري، قال إن استانبول بعيدة جداً، وأنه سمع اسم پاريس مرة واحدة فقط. وسألني «ما هي اللغة التي يتكلمونها في پاريس؟» وأجبته: «الفرنسيَّة»، فهزَّ رأسه وهو ينظر إلى جزمته اللبَّاديَّة. أعطيته إحدى القرنفلات الثلاث التي اشتريتها لأضعها على ضريح الشَّاعر. أما هنا الآن و أنا أنتظر تانيا في

ساحة پوشكين فإني أحمل في يدي قرنفلة حمراء واحدة. والزَّمن لا يعرف المضي. هل ستأتي يا ترى؟

«مات الشاعر»

كان ضريح ناظم مصنوعاً من قطعة صخريَّة واحدة. ونصب الشاعر فوق الصخرة مائل إلى الأمام، كمتأهب للخروج في مسيرة طويلة للتخلص من الظلام. جسمه سليم بشكل، ونظراته حازمة. وفي الأسفل، عند قدميه كتب تاريخ ميلاده ووفاته ١٩٠٢ – ١٩٦٣. احتضنت قطعة الصخرة ثم وضعت القرنفلتين الحمراوين على الثلج. وسمعته «خذوني و اذهبوا بي / وادفنوني في مقبرة قرية من قرى الأناضول». كانت المقبرة خالية. مررت من بين مختلف أحجام النُصُب التذكارية، وأحجار الأضرحة وخرجت إلى الشارع.

موسكو في الربيع، لكنَّ الشمس لا تبعث الدفء. فكرت في ذوبان الثلوج في سهول اوكرانيا المترامية الأطراف. وفي بدء تفكك الجليد في الأنهار. كانت المياه تسيل بقوة تحت الجسر. وقطع الجليد الضخمة تمرُّ مسرعة كأنها في سباق فيما بينها. وفوق الجسر فتح رجال الشُّرطة النار على العمَّال المتظاهرين. دم عامل يعتمر قبعة سوداء، يقطر أسوداً. لم أنسَ أبداً آثار الدماء على الثلج يوم تفكك الجليد. كان فيلماً لآيزنشتاين، شاهدناه سوية في

سينماتيك في استانبول. كنتِ بجانبي. عيناكِ على الشَّاشة ويداك بين يدي. كنت أتابع الفيلمَ في وجهك الأبيض الدقيق، المَشاهد تتغيَّر بسرعة، وشعرك المجدول وجبينك الصَّغير يضيء ويعتم مع انعكاس الضوء من الشَّاشة. فتح رجال الشُّرطة النار على العمَّال. وتحت الجسر قطع الجليد تمر. بعد انتهاء العرض خرجنا من سينماتيك وسرنا باتجاه حديقة الجنة «جنت باهچاسي». وعندما مررنا من ساحة تقسيم كنتِ قد شرحتِ لي بإعجاب كافة أفلام أيزنشتاين التي لم تفوِّتي عليكَ أياً منها. ثم تحدَثتِ عن ثورة تشرين الأول. لم أنسَ لمعان عينيك ولا شعرك المجدول، ولا وجهك الأبيض الدَّقيق. كانت استانبول في الربيع، وكان قلبانا في انفعال وهيجان.

ذلك اليوم، فيما كنا نمشي سويَّة في أحد الأزقَّة النازلة من أياز باشا نحو البحر، وقفنا أمام بائع كتب لنشتري «مشاهد إنسانيَّة» لناظم حكمت. ولتقرئي لي على طاولة قصيَّة في حديقة الجنة قصَّة تانيا. لم أكن أعرف مطلقاً أنني سوف أتذكرك على البعد في موسكو بعد سنوات، وأتذكر جسمك الأسمر الغض فيما أنا أنتظر تانيا. في ساحة پوشكين أنتظر تانيا. مع أن تانيا ماتت. كان اسمها زوي، لكنها قالت لأولئك «اسمي تانيا». كانوا قساة و جبناء داخل ألبستهم النازيَّة ويتخيلون أنهم سيدخلون موسكو خلال أسبوع، ولم يبقَ هناك أي حائل يحول دون تحكمهم بالعالم. أدموا جسمها الأسمر

الغض بالسِّياط أولاً ثم بمنشار. لكنها لم تفش سرَّ رفاقها. وأجابت على أسئلتهم كلها بكلمَتي «لا» و «لن أتكلم». وفي عام ١٩٤١ شنق النازيُّون تانيا وسط قرية قريبة من موسكو. إني أتذكر الآن تلك الأبيات التي قرأتها عليَّ على تلك الطاولة القصيَّة في حديقة الجنة في استانبول. صوتك يأتي من أعماق السنين ويلفُّ كياني ويداعبني بحرارة تحت الشمس الباردة وأنا انتظر تانيا في ساحة پوشكين: «تانيا / بقدر ما تحبين بلادك / أحب أنا أيضاً بلادي . . . يا تانيا / أنت حزبيَّة أُعدمتِ / وأنا شاعر سجين. «تقرئينها وأنت تشدِّدين على الكلمات. وكم كانت اللغة التركية، وأداء ناظم حكمت لائقَين بفمك. الكلمات تخرج من فمك النديِّ ولسانك الرَّطب وتمطر على ساحة پوشكين. تقرئين وأنت تعطين مخارج الحروف حقها: «شدَّ الجلاد الحبل / عنق البجعة الغالي اختنق / لكن الحزبي وقف على أطراف قدميه / وصرخ بالحياة، الإنسان».

هكذا سمعت قصَّة تانيا لأول مرة من فمك في استانبول، ثم افترقنا. وغادرتِ فجأة إلى الأناضول. بقيتُ وحيداً على الطاولة في حديقة الجنة. صرت أتجول مع نفسي، وأحادث نفسي. لم تموتي مثل تانيا. كان يمكنك أن تموتي، لكنك لم تموتي. أُصادف اسمك في الصحف بين الفينة والأخرى. وأشاهد صورك في المطارات

والمحطات وعلى الجدران في كل مرَّة أسافر فيها إلى تركيا. وجهك الأبيض الدَّقيق لم يتغيَّر، ولا شعرك المجدول، رغم مرور السِّنين. وبشفتيك اللتين لم أشبع من رطوبتهما، واللتين همست لي قصائد ناظم بهما، تبتسمين للقادمين والذاهبين في الطرقات، والمسافرين المجهولين مثلي، الذين يتنقلون من مدينة إلى مدينة، ومن بلد إلى بلد وحقائبهم في أيديهم. الشكر الجزيل أنك لم تموتي. لكن يمكن أن تموتي فجأة يوماً ما. كالشّاعر، تدمى يدك التي تمدّينها صباحاً إلى صندوق البريد برصاصة تُطلق من كمين. أو قد تصابين أثناء مغادرتك غرفتك التي تختفين فيها في قرية جبليَّة.

«مات الشَّاعر»

ممَّن سمعت هذه الجملة لأوَّل مرَّة؟ لا شك أن شخصاً ما لم يهمس بها في أذني أثناء انتظاري تانيا تحت السَّاعة في ساحة پوشكين. تعرَّفت إلى تانيا في اليوم الأول لوصولي إلى موسكو. عملت مدَّة طويلة في السفارة في باريس. فتاة ناحلة قصيرة الشَّعر. أعلمني أصدقاؤنا المشتركون أنها ستأتي لاستقبالي. استقبلتني في المطار. ستغادر موسكو في عطلة نهاية الأسبوع. تواعدنا على اللقاء يوم الاثنين، أيْ هذا اليوم. قالت «في ساحة پوشكين عند

السادسة تماماً بعد الظهر . عندما تتجوَّل في موسكو لا بد أن تمرَّ بساحة پوشكين ، وإذا لم تمر بإمكانك أن تسأل و تعرف» .

أنظر في ساعتي . إنها السادسة والربع . والساعة التي أنتظر تحتها تشير إلى السادسة والربع كذلك . هل ستأتي يا ترى؟ فتاة جميلة قريبة من النفس . قالت لي بلغة فرنسية سليمة: «إنك لا تشبه الأتراك مطلقاً . ولكم عيناك زرقاوان!» . في الليل تخيَّلت نفسي في سيَّارة أجرة مع تانيا . كنا نتقدم بسرعة في شارع طويل لا نهاية له . أبنيَّة حجريَّة بنوافذ معتمة ، وأشجار تغطيها الثلوج تمر من خلف الزجاج . المدينة غطت في النوم منذ زمن طويل . ضوء القمر يلاحقنا ، فيضيء السَّاحات الخالية ، والشَّوارع المغطاة بالثلوج . أحياناً ، عندما كنا نتوقف عند الإشارات الحمراء كانت تانيا تسند رأسها إلى كتفي وتغفو . كنت أحسُّ بأنفاسها الحرَّى في رقبتي . الشكر أنها كانت تعيش! يدها في يدي . وفي الغرفة الضَّيِّقة التي سنكون فيها معاً بعد قليل ، سوف يتجوَّل لساني في فمها؛ وسوف يرتعش جسدها النحيل بالنشوة . أجل لا بدَّ أن يحدث هكذا . الشكر أن تانيا كانت تعيش . « تانيا / كم قصَّ قصيراً شعرك / وكم هو عريض جبينك /كضوء القمر / يبعث الرَّاحة والأمل في نفس الإنسان / وجهك دقيق وطويل / أذناك كبيرتان قليلاً / ما زال عنقك عنق طفلة: يوحي

للمرء أنه لم تطوقه ذراع رجل أبداً / ويتدلى شيء مزخرف من قبّتك / فليحبُّوا زينتك أيتها المرأة الصغيرة» .

فعلاً لم يصعب العثور على ساحة پوشكين . مشيت البارحة على طول شارع غوركي ، قاصداً أن أقطعه من أوله إلى آخره ، وسيظهر أمامي تمثال پوشكين كيفما كان . بعد أن مشيت قليلاً ، وعلى اليمين رأيت تمثال يوري دولغوروكي مؤسس مدينة موسكو . كان الأمير مرتدياً درعه منتصباً فوق صهوة حصانه ، يشير بيده إلى مكان ما . قبل التمثال ، كان لينين مائلاً إلى الأمام قليلاً في كرسيه الذي يجلس عليه ، متغلغلاً في حديقة سوڤيتسكايا ، والعصافير تحط على رأسه الأصلع . من يدري كم كنت ستنفعلين لو رأيته . فقد وصفت لينين لي دائماً على أنه مفكر ، شارد قليلاً ، كأنه واحد منا .

كنت أعرف أن پوشكين سينتصب أمامي بعد قليل . وحدث ما توقعتُه ، فبعد أن مشيت قليلاً أيضاً التقيت بپوشكين . كان داخل معطفه النحاسي ظريفاً ومكدراً . وفي الخلف يقوم بناء حديث سأعرف فيما بعد أنه من أكبر دور السينما في موسكو . قلت في نفسي: «غداً يجب أن أحضن تانيا هنا ، تحت هذا التمثال» .

اجتزت إلى الرصيف المقابل إلى محطة بيلوروسيا التي تمتد على طول شارع غوركي ، ماراً أمام تمثالَي ماياكوفسكي وغوركي ،

حيث كان مايا كوفسكي يقول: «هل يهمُّني /جسمي نحاسي/ وقلبي من حديد بارد» . حتى لو كان من حديد بارد فإن قلبه لم يحتمل . إذ اصطدمت سفينة الحب بتيَّار الحياة . و«مات الشَّاعر» .

الشمس تضرب الآن فنارات الأزقة المحيطة بساحة پوشكين . الازدحام يشتد مع مرور الوقت . أماكن العمل خَلت . تانيا مازالت غير موجودة بعد . السَّاعة السادسة والنصف . صوت يقول:

«مات الشاعر» .

«الشاعر لم يعد موجوداً

انتهت الحياة» .

تخطر ببالي الأبيات الأولى لقصيدة شعرية كتبها ليرمونتوف عندما سمع خبر موت پوشكين . هذه القصيدة التي قرأت أن ليرمونتوف نفي من أجلها إلى قفقاسيا ، مثلما قرأت عن قتله في دويللو ، وعن اغتيال غوميلوف بالرَّصاص من قبل البلاشفة . وعن موت الكساندر بلوك جوعاً أثناء الحرب الأهلية في بتروغراد ، وعن انتحار أسَّنين شنقاً في فندق أستوريا ، وانتحار مايا كوفسكي الذي انتقد انتحار أسَّنين . وعن عدم عودة ماندِلستام من ڤلاديڤوستوك .

«مات الشاعر»

تانيا، أيتها الفتاة الحزبيّة تانيا. ربما مِتِّ أنت أيضاً في هذه اللحظة. ربما مزّقت رصاصة وجهك الأبيض الدّقيق الذي لم أره منذ سنوات، وجبينك الصغير. الدم يقطر من جسمك الأسمر الغض، الذي لامستُه في الغرف الضّيّقة المسدلة الستائر شتاء. وفي الشواطئ الرّملية المزدحمة التي تشويها شمس استانبول صيفاً. بل إن جسمك بدأ يبرد. ربما أنت الآن غير موجودة أيضاً. وللأسف فإن موتك لا يحمل المعنى الذي يحمله موت الشاعر.

تانيا تعالي يكفي!

١٩٨٣

تمت الترجمة في حلب

٢٠٠٦/٦/٩

غرفة راسكولنيكوف

في هذه الغرفة الصفراء

التي تشبه الخزانة، تشبه الصندوق،

ضاق صدره و كاد أن يختنق.

الجريمة و العقاب.

عندما دخلت المبنى القديم المؤلف من خمسة طوابق، والقائم عند نقطة تلاقي زقاقين، لم أكن قطعاً أنتظر أن يستقبلني دوستويفسكي بوجنتيه الغائرتين، وبعينيه السوداوين الصغيرتين المدفونتين في محجريهما، وبجبينه العريض. لكنني كنت أعتقد بأن صورة الكاتب، بشَعره المتساقط، وبلحيته الخفيفة الطويلة التي لم تكن تغطي بالكامل فمه المزبد أثناء نوبات الصَّرَع، سوف تظهر أمامي ما أن أعبر باب الطابق الثاني وأدخل إلى الداخل. رأس منتصب فوق رادينكوت أسود بقبَّة كروازيه. حاجبان معقودان في نهاية جبين

بيضوي أبيض. نظرات متعبة وحزينة. رأيت صورة دوستويفسكي هذه قبل سنوات في إحدى الموسوعات الأدبيَّة. كما كانت هذه الصورة نفسها موجودة على غلاف رواية قرأتها في غرفة خلفية تطل على ساحة داخلية في بيتنا في استانبول، وكانت الصورة تحت كلمَتَي: «الجريمة والعقاب». كنت وقتها قد عدت حديثاً من المنفى. وما أن عدت حتى حجزت نفسي في أضيق غرفة من غرف المنزل، إذ كنت أود أن أبقى وحيداً فترة، وأن أعثر على شخصيتي التي أضعتها في المنفى. كنت قد عشت فقدان الإحساس والعذاب. جسمي كان جريحاً. أما معرفتي فكانت متلاشية تماماً. كنت كانني نسيت الماضي. ولم يبق في ذاكرتي سوى شبكات الأسلاك، والتلال العارية التي تحرقها وتشويها شمس الصيف. وضوء القمر الذي يضرب سطح البحيرة الرَّاكدة البعيدة. هل كنت مذنباً؟ حتى لو كنت لا أعرف مطلقاً ذنبي، ولكن نظراً لمعاقبتي فلا بدَّ أنني اقترفت ذنباً ما في الغرف المظلمة الضيقة، أو في الأماكن القذرة في نهايات الأزقة المستلقية على اللَّيل اللا منتهي، ربما اشتركت في اجتماعات سرِّيَّة في قبو منخفض السَّقف، وارتكبت أعمالاً هدَّامة. لكنني أنا الذي انهدمت في النهاية. عدت من المنفى كفزَّاعة عجيبة، كقميص مرقَّع يهتز على حبل غسيل. وفور عودتي حجزت نفسي في أضيق غرفة من غرف بيتنا في استانبول.

حدث ما توقَّعته. فما أن اجتزت باب الطابق الثاني ودخلت حتى رأيت دوستويفسكي في المواجهة تماماً على الجدار الذي يعلو فوق الخزانات الزجاجية التي تعرض فيها المخطوطات المكتوبة بخط اليد. وهو ينظر إلى لوحة إعلانات مرتفعة وسط الصَّالة تماماً. جدران رطبة وسخة. ومن اللوحة يصدر شعاع أصفر يتخلل النوافذ وينعكس على مياه القناة العكرة. كان الكاتب ينظر من الجدار إلى سانت بطرسبرغ المدينة التي يعرف أزقتها وأحياءها كما يعرف راحة يده، والتي كان يتجوَّل كسائر في نومه، في أحيائها الجانبية، وعلى أرصفة موانئها المغطاة بالثلوج، وفي أزقتها التي لا تضيئها مصابيحها المعلقة على الأعمدة بأوتار ملوَّنة. هل كان يرى الفتحات ذات اللون القرميدي في القلعة التي سيق إليها بيتر و بول لكي يعدما رمياً بالرَّصاص، أم كان يرى برج قصر قيادة البحريَّة الذي يخترق السَّماء؟ ربما كان ما يراه قطع الجليد السَّابحة في نهر نيفا. نيفا بمياهه الصَّافية الشَّفافة الذي تعكسه أبراج أجراس القصور الفخمة ماء كامداً! وفوق سطح الماء الرَّقراق غابة من الأحلام. غابة من أحلام الفقراء الذين تفوح أفواههم برائحة الخمر الرَّخيص، والعاهرات المسلولات اللواتي ينتظرن زبوناً في الأزقة الموحلة الضَّيِّقة، والعجائز اللواتي ينشرن الغسيل في الباحات المعتمة في بيوتهن المتداخلة ببعض، والطلاب والقتلة الذين يحلمون في الغرف الضَّيِّقة بسقوفها المنخفضة.

وفي فجر أحد الأيام تفككت هذه الغابة مع تكسُّر قطع الجليد، ودفنت في أعماق نيڤا. وعندما قصفت آڤرورا ذات المدخنة الطويلة القصر الشتوي بالمدفعيَّة في فجر أحد الأيام، لم يكن قصر كرنسكي هو الذي اهتزَّ وانهدم، وإنما كان خيال مدينة سانت بطرسبرغ المخيف. وهكذا وبعد سنوات، ومن جدار المتحف الذي حمل اسمه في لينينغراد، كان دوستويڤسكي ينظر إلى هذا الخيال. وسواء أثناء قراءته الإنجيل على ضوء شمعة مرتجفة على مدى السَّنوات الأربع التي قضاها في الزنزانة في سيبيريا، أو عندما كان يضيء المصباح في اللَّيل في منفاه ويميل على أوراقه البيضاء. أو أثناء وقوفه على رأس طاولة الرُّوليت مع مشاهير إحدى مدن أوروبا الصَّاخبة البعيدة، كان يرى دائماً هذا الخيال، غابة الأحلام التي تتماوج على سطح نيڤا الرقراق وهي تغرق وتنفصل.

ثبتت جيِّداً سانت بطرسبرغ دوستويڤسكي في ذاكرتي وأنا أدور وأتجول حول اللوحة الموضوعة وسط الصَّالة تماماً، وصرت كأنني رأيت كل شيء، كل شيء، من الموظفين الذين يتنزَّهون في شارع نڤسكي، إلى الضُّبَّاط الذين ينهون أعمارهم في صالات البلياردو العابقة بدخان السجائر، إلى العاهرات المسنَّات والفتيات الصَّغيرات. مرَّت أمامي عربات نقل تجرُّها أحصنة غطَّى الزَّبد أفواهها. وصوت كمان أرعش الهواء الذي يفوح برائحة الڤودكا.

دخلت و خرجت إلى مساكن تغتسل بمياهها القذرة، وإلى خمَّارات يتكوَّم فيها السُّكارى كقطع الحطب، وإلى أسواق مزدحمة. كما حدث أن مررت ببعض الجسور الضَّيِّقة، ومشيت تحت أشجار السنديان التي تساقطت أوراقها. المياه الراشحة من جدران هذه المدينة المبنيَّة فوق الطِّين، دخلت إلى كياني قطرة قطرة، وغذَّت وكبَّرت الضيق في نفسي، فضاقت الدنيا شيئاً فشيئاً؛ واختفى الناس والطبيعة والذكريات. وما عدت أنظر إلى الخطوط اليدوية المعروضة في خزائن المتحف الزجاجية، ولا إلى اللوحات على الجدران. تركت خلفي أعمدة سانت بطرسبرغ المغطَّاة بالثلوج، وسماءها الرَّماديَّة الكامدة، والأجسام النَّاحلة في الغرف المنخفضة السُّقوف المطلَّة على مياه الأقنية الوسخة، وفتحت الباب الذي يبعد عن اللَّوحة قليلاً، وصعدت الدرج إلى الطابق الخامس إلى غرفة راسكولنيكوف.

لم يكن يخطر ببالي مطلقاً وأنا أقرأ الجريمة والعقاب في غرفة داخلية مطلة على باحة خلفيَّة معتمة في بيتنا في استانبول أنني سوف آتي يوماً إلى لينينغراد، وأنني سوف أخرج من باب صالة بيت دوستويفسكي الذي سكنه فترة من الزَّمن وسوف أصعد إلى غرفة راسكولنيكوف. كنت قد عدت تلك السَّنة من المنفى جريحاً ومتعباً. وفور عودتي حجزت نفسي في أضيق غرفة من

غرف البيت . أمي كانت تقول إن انطوائي هذا سوف يُتعب صحَّتي النفسيَّة ، وأنني يجب أن أخرج وأتجوَّل ، وكانت تدعو أصدقائي إلى البيت . أما أنا فلم أكن أرغب في رؤية أحد . ثم إنني لم أكن وحدي فذكريات ذلك الكتاب المرعب التي كانت تلف كياني و ترعش جسمي في المنفى قبل أن أنام ، لم تتركني هنا في غرفتي في استانبول أيضاً . وآلاف الرجال المحكومين بالأشغال الشَّاقة في «ذكريات من بيت ميت» المحرومين من النساء ، كما كانوا يحلمون ويفعلون في المهجع الخانق الذي لا هواء فيه ، هناك أيضاً في المنفى كانوا يقتربون من فراشي ويحيطون بي برؤوسهم الحليقة بالموس ، وبوجوههم المخيفة ، وبأجسادهم المشعرة المليئة بالجروح والقروح من آثار الضَّرب ، وينتظرون فوق رأسي ، بحيث كنت أخشى أنني لو غفوت يمكنهم أن يهجموا علي فيغتصبوني أو يخنقوني . مع ذلك فإن هؤلاء الخلائق الذين تُركوا في طرف قصيٍّ من أطراف الدنيا ، لكي يؤدوا بدل ما اقترفوه من جرائم ، فتعرضوا لمختلف أنواع الإهانات وأشكال التعذيب ، وأُخرجوا عن انسانيتهم ، كانوا أصدقائي . وعليَّ أن أحسن معايشتهم ، فأختلط بهم وأقاسمهم آلامهم ، لأننا كنا نعاني الضيق نفسه في الظروف نفسها التي نعيشها . المحكومون بالأشغال الشَّاقَّة الذين خرجوا من كتاب دوستويفسكي واستقروا في غرفتي ، تركوني بعد مدَّة أرتاح . قلَّ عددهم في البداية ، ثم ما عادوا يجتمعون فوق رأسي فور إغماض عينيَّ . صاروا يظهرون

من الباب ثم يختلطون بالظلام . قلوا رويداً رويداً . وعندما تعرَّفت إلى راسكولنيكوف عادوا إلى حيث أتوا ، إلى الوحدة المتجمدة في زنزانة أو مَسْكٍ ، وبقيت أنا وحيداً مع راسكولنيكوف في الغرفة الداخلية في بيتنا في استانبول .

حقيقة كانت غرفة راسكولنيكوف أشبه بخزانة . وقد أقيمت بشكل مطابق للأصل تماماً . فهي مغطاة بورق جدران مصفَر ، ممزّق في بعض الأماكن ، وقد علاه الغبار . والسقف منخفض لدرجة أنني خفت من الوقوف في الغرفة فترة طويلة ، واضطررت للجلوس على الفراش . ودون أن أتحرَّك من مكاني أنزلت متراس الباب ، ثم تركت نفسي لأعماق الفراش الضيِّق . رأيت السقف في البداية؛ ثم رأيت عنكبوتاً على الجدار المقابل . بقي العنكبوت فترة طويلة بلا حراك . كانت الغرفة ساكنة في الضوء الرَّمادي الداخل من النافذة . ثم لامست سمعي ضجَّة ما . كأن أحداً ما يغرز مسماراً في الجدار . نهضت من مكاني واقتربت من النافذة ونظرت إلى الباحة المعتمة في الأسفل . لا يوجد أحد فيما يبدو . رأيت أزهار العطريَّة تهتز في الأصص المصفوفة على النافذة المقابلة . خفَّت الضجَّة شيئاً فشيئاً ، ثم خيَّم صمت عميق على الغرفة . عندما ابتعدت عن النَّافذة وتمدَّدت مجدَّداً على الفراش ، لاحظت أن العنكبوت واقف في مكانه نفسه . وبعد أن بقي فترة ، فترة طويلة بلا حراك ، تحرك ،

فدَّب مسرعاً وغاب في ثنايا أوراق الجدران المغبرَّة. في تلك اللحظة نفسها سمعت صوت راسكولنيكوف. كان يتكلم بدون توقف، كأن نهراً من الكلمات يسيل مثل ماء جار يغذى بمياه الثلج فيجرف معه الصخور ويسيل نحو الوادي «في ذلك الزمن كنت قد انسحبت إلى زاويتي مثل عنكبوت. كان يقول راسكولنيكوف. هل تعرف كم تضيِّق الأسقف المنخفضة والغرف الضيِّقة الخناق على روح الإنسان، وكم تُتعب قلبه؟ لكم كنت أنفر من تلك الحجرة! مع ذلك لم أكن أرغب بالخروج منها بأي شكل من الأشكال. لم أكن أخرج لأيَّام. ولم أكن أرغب بالعمل أو حتى بتناول الطعام. كنت أنام باستمرار».

أنا أيضاً انزويت مثلك في حجرة ضيِّقة فور عودتي يا راسكولنيكوف. إذا أحضرت أمي شيئاً أكلته، وإذا لم تحضر شيئاً قضيت يومي هكذا دون طعام. أضف إلى أنه لم تكن لدي فكرة تنهش داخلي مثلك. كنت أسرح بين حين وآخر، وأرى نفسي في المنفى جالساً تحت شجرة وحيدة في فضاء واسع ممتد على مرأى البصر، بلا بيت و لا إنسان فيه. أوراق الشجرة تحف فوق رأسي، مع أنه ليست هناك أية نسمة ولو خفيفة. والشمس تدحرجت ووقفت في كبد السماء بلا حراك. كنت مرتاحاً في الظل. لكن الظل كان يغطي مساحة ضيقة فقط. التراب حار، وجذع الشجرة يابس. حتى لو لم أستطع التحرك إلى أي مكان كنت مرتاحاً تحت

الشجرة. وإذ بهم يملؤون الفضاء فجأة، ويحطّون فوقي كما تحط أسراب الجراد فوق أرض القمح، فانسحق تحت وطأة أجسادهم، ويصعب عليَّ التنفُّس، كانوا مرعبين بلباسهم الموحَّد، وبوجوههم المحروقة، وبأفواههم الكبيرة المتناسبة مع وجوههم يحيطون بي فيما أنا على وشك الإغفاء، وينتظرون فرصة سانحة لينقضُّوا عليَّ بعيونهم الجاحظة. لم أستطع التخلص منهم بأي شكل يا راسكولنيكوف! كانوا يتعقبونني في كل مكان. أحس بأنفاسهم فوق رقبتي، وأسمع صخب أصواتهم داخل دماغي. أنت عندما كنت في غرفتك، كنت وحيداً مع تلك الفكرة الغريبة التي تنهش ذهنك. كنت تستطيع أن تبقى وحيداً. أنت سوف تقتل المرابية وسوف تنقذ حياتك. ليس حياتك فقط، بل ستقتل تلك المرأة الفاسدة المقرفة، وستسرق أموالها لتنقذ الإنسانية منها، ولترتفع إلى مرتبة الواصلين. ثم إن وجود المرأة المرابية حقيقة وليس خيالاً. أما أنا فلم أستطع التَّخلص من أولئك بأي شكل يا راسكولنيكوف، لم أستطع سحق رؤوسهم بآذانهم الضخمة وأرتاح. كنا معاً في كل مكان. في التعليم، في قاعة الطعام، في المهجع، وحتى في الحمَّام الذي كنَّا نؤخذ إليه جماعياً أسبوعيًّا.

كانت المياه القذرة تتناثر عليَّ عندما كانوا يكيِّسون ظهور بعضهم بأيديهم الضخمة ذوات الأصابع الغليظة. وعندما كانت قبَّة الحمَّام تطنُّ بقهقهاتهم، كانت الزوايا تمتلئ أقذاراً لا ماء. كانوا

بشعين بأجسادهم البدينة القصيرة، وأذرعهم الطويلة، والشَّعر يغطي كافة أنحاء أجسامهم. أنا أيضاً كنت واحداً منهم، شبيهاً بالحيوان مثلهم، وقبيحاً بقدر قبحهم. كنت أغيب عن نفسي في بخار الحمَّام، وأتمدَّد على الأحجار الساخنة، وفي اللحظة التي أوشك فيها على الارتخاء والارتياح، كانوا يهجمون علي بالقباقيب. لازمني هذا الكابوس، هذا الوهم المرعب أياماً وليالٍ، فجفاني النوم، وانقطعت عن الطَّعام والشَّراب. وعندما عدت من المنفى بعد شهور وانزويت في الغرفة لم أستطع التخلُّص من أولئك لفترة طويلة. إذ كانوا فوق رأسي في كل لحظة. وفي رؤيا بين النوم واليقظة، وبانتفاضة لا حدَّ لها قاومت الموت والقتل. هل كانوا جرائمي و ذنوبي، هل كانوا ندمي يا راسكولنيكوف؟ أم هي جروحي المتقيِّحة وقهري المتراكم؟

ثم تعرَّفت عليك، في تلك الأيام التي كنت تتجوَّل فيها كمن يسير في نومه، في أزقَّة سانت بطرسبرغ الموحلة الضَّيِّقة، وعلى ضفاف القناة. أيام المرض والوهم. كنت تسير وتسير بجوار الجدران القذرة، دون أن تعرف إلى أين تسير، ودون أن تعرف أين أنت. تعبر الجسور كمنجرف مع السيل، الجسور القديمة التي تعلو أحجارها الطحالب. ظلُّك كان يتطاول. وعندما تخرج إلى سواحل نيفا يتَّسع وجه السماء، وينفتح أمامك فضاء أزرق أبيض رحب. لكنك كنت تعود فوراً إلى أحياءِ المدينة الفقيرة، وتمر من أمام الأقبية

القذرة التي تفوح بروائح التبغ ، والنوافذ المكسّرة الزُّجاج التي تعكس أشعة الشَّمس الخامدة ، والمنصّات اللزجة بالبلغم . كانت تلك الرائحة المقرفة التي يعرفها كل بطرسبرغي لا يستطيع الذهاب إلى المصيف تحرق قصبة أنفك . «هنا مدينة أنصاف المجانين يا عزيزي» . كنت تتذكَّر مقولة سفيدريكايلوف ، وهو يبتسم ابتسامة شيطانية ويقول: «نادراً ما نصادف مدينة أخرى على وجه الأرض غير بطرسبرغ لها تأثيرها المعتم والحاد والغريب على النَّفس الإنسانيَّة» . فعلاً لم تكن أزقة مدينة سانت بطرسبرغ هي التي تقيسها طوال النَّهار ، بل كنت تتجوَّل في أرجاء روحك الوحيدة المعذَّبة . الأزقة التي تسير فها كانت مزدحمة وقذرة ، وأنت تشقُّ الزِّحام وتقطعه مثل سفينة تتقدَّم وتشقُّ عباب بحر الفقر ، مخلِّفاً خلفك الأطفال الجياع ، والنساء المسكينات ، والآباء السُّكارى . كنت تسير لكي تتخلَّص من غرفتك الضيِّقة ، تسير في حلم ما ، في وهم لا ينفد ولا ينتهي ، تسير نحو الدُّول ، نحو العالم متحدِّياً نابليون ، ولكن بأداء نابليون نفسه ، كنت تدوس الظلم وتسحقه وتمر من فوقه . كانت الفكرة تتبلور في رأسك كلما سرت ، وتكبر وتطول قامتها ، مثل صوص ينقر البيضة ويمد رأسه منها . لأنك بعيداً عن الجميع . كنت مختلفاً عن الجميع . كنت تنميّ فكرتك في وحدتك بضيقك . وكانت شمس الصَّيف الشَّاحبة تتبعك حيثما سرت . في ذلك الزمان عندما كنت تسير مصمِّماً هكذا لوحدك في أزقَّة مدينة سانت بطرسبرغ ،

لم تكن قطعاً تعرف أنَّ سونيا الشَّقراء الصغيرة سوف تسير خلفك مثل شمس الشمال، ولن تتركك مطلقاً، وسوف ترفرف فوقك مثل ملاك حام مهما كان المصير المكتوب على جبينك. أنا أيضاً عندما بقيت وإيّاك وحدنا في غرفتي في استانبول لم أكن أعرف أنَّ هذه الخيالات المخيفة سوف تخفُّ بعد فترة ثم سوف تختفي كليّاً.

لم أرغب بالوحدة، والابتعاد عن أنظار النَّاس، والإفلات من المراقبة حتى في أقسى و أسوأ الظروف، كما رغبتها في تلك الأيام يا راسكولنيكوف! ولقد فهمت سبب هذه الرَّغبة بشكل أفضل عندما عرفتك. وكما كتب قلمك الذي شَهَرك ومنحك الحياة. في «ذكريات من بيت ميت» كان أكبر عذاب في المنفى هو عدم القدرة على الانفراد، عدم التمكّن من البقاء وحيداً ولو للحظة، ولو لثانية. الاستيقاظ دائماً إلى جانب شخص آخر، اقتسام الخبز والماء مع الآخرين. امتصاص الهواء دائماً مع الآخر، ليس بشكل أخوي كالغابة، بل كمن يريد قطع أنفاس الآخر. أن تشعر بوجود شخص آخر دوماً بجانبك، وأن تعيش تحت نظراته، وتحت وطأة ثقله السَّاحق، وأن تكثّر ذلك الآخر. أن تنسى فرديَّتك وفاعليتك، وأن تنام مع المئات من أمثاله، وأن تستيقظ مع الآلاف من أمثاله. في المهجع، في قاعات الطعام، في التعليم، في الاستراحة، في كل زمان وفي كل مكان، حتَّى في الخلاء، مع أولئك. أن تختلط بهم تماماً. ذقت سعادة الوحدة والانفراد اللا محدودة، عندما

كنت معك يا راسكولنيكوف! عندما انزويت وإيَّاك في غرفة البيت الخلفيَّة. والآن وبعد سنوات، وبعيداً عن كابوس أسود عشته في معسكر الاعتقال، أنا معك مرة أخرى. رغم وجود سنوات عديدة تفصل بيننا. سنوات وجدران تعلو وترتفع حيث يتقاطع العمل الأدبي مع الواقع. جدران يصعب تخطيها واجتيازها. مع ذلك فإني معك.

تجوَّلت هذا الصباح في أزقة المدينة التي نظرت إليها لآخر مرة بعينين معصوبتين، يوم أرسلت إلى «بيت ميت» في سيبيريا بعد أن حكم عليك بالأشغال الشاقَّة، أزقَّة سانت بطرسبرغ التي ستدخل في أحلامك في الزنزانة، والتي لن تمَّحي من ذاكرتك بشكل من الاشكال. لكم تغير كثيراً كل شيء منذ ذهبت! إذ لم تعد هناك أزقَّة موحلة ضيِّقة أو أنحاء رطبة معتمة، ولا سكارى مدمنون، ولا عاهرات مسلولات. شُقَّت شوارع عريضة، وفُتحت ساحات جديدة. الحدائق جميلة، والنَّاس مرتاحون، الترامواي والتروللي باصات تروح وتغدو، والمترو كذلك يروح مرة ويغدو أخرى تحت الأرض. في كلِّ مكان إصلاحات وتسويات، وبنايات حديثة. وأعيد تنظيم أجمل ساحة في المدينة لذكرى الكاپريستيين[1]. في

---

(١) مجموعة تقدميَّة منظمة، حاول أعضاؤها اغتيال قيصر روسيا في شهر كانون الأول ولذلك سموا الكاپريستيين نسبة إلى شهر كاپريست كانون الأول بالروسية، كما سموا بالديسمبريين أيضاً. ومنهم الكاتب الروسي دوستويفسكي

منتصف السَّاحة تماماً بترو الشجاع على صهوة جواده الذي رفع قائمتيه الأماميتين إلى الأعلى، وكأنه يكاد يقفز من فوق نهر نيڤا إلى الضفة المقابلة. انتصب الحصان بشكل رائع من قطعة الصخر فوق القاعدة. وبترو سعيد جدّاً وهو مجنَّح في سماء المدينة التي تحمل اسمه. ذيل الحصان النحاسي الطويل جداً، يجرُّه نحو الأرض معرقلاً ارتفاعه نحو السَّماء من نافذة روسيا الأولى هذه التي فُتحت على أوروبا. ولكم تغيَّرتْ بعد أن ذهبتَ، هذه المدينة التي جعل بترو معماريين غربيين يبنونها. وكما سمِّيت چاريس ستالينغراد، سمِّيت سانت بطرسبرغ لينينغراد. إنَّها تحمل الآن اسم الرجل القصير القامة، العريض الجبهة، الذي زلزل أرض روسيا منذ أن وطئت قدماه محطة فنلانديا. ولم تتغيَّر مقدِّرات هذه المدينة فقط، بل تغيَّرت مقدِّرات روسيا بأكملها في يوم من تشرين الأول. في يوم من تشرين الأول عندما قال هذا الرجل القصير القامة، العريض الجبهة للمجتمعين في سمولني: «البارحة كان باكراً، وغداً متأخر/ الوقت تماماً اليوم!» تغيَّرت أيضاً مقدِّرات سهول أوكرانيا الشَّاسعة اللا متناهية، ومقدرات ضفاف إرتيش الذي أمضيت فترة عقوبتك على ساحله. وفتحت أڤرورا النار على القصر الشَّتوي. أڤرورا ذات المداخن الثلاث ربطوها الآن في الميناء وجعلوها متحفاً عائماً. عندما ذهبت لقضاء فترة حكم الاشغال الشاقة في سيبيريا، لم تكن تعرف حتماً أن سانت بطرسبرغ التي كنت تتجوَّل في أزقَّتها

مثل سائر في نومه، ستصبح بتروغراد ثم لينينغراد، كما لن تعرف آلام الأيام التي ستقضيها في زنزانة مطلّة على نهر إرتيش. مدافع أفرورا ليست مصوَّبة نحو القصر الشّتوي الآن. إنها مصوبة نحو فندق سياحي أبيض ناصع البياض. وخيال الفندق يسبح فوق سطح مياه نيڤا. نيڤا لم يتغيَّر مطلقاً. مياهه مازالت ساكنة، وقطِع الجليد شفَّافة. أعمار الأنهار أطول من أعمار المدن، ربَّما اكتشفت هذا أنت أيضاً عندما كنت تقضي فترة حكم الأشغال الشاقة على ساحل إرتيش في درجة حرارة ناقص ٤٠°. هكذا يا راسكولنيكوف سرتُ وقطعتُ الميناء بطوله، كما قطعته أنت أيضاً في وقت من الأوقات، فظهرت أمامي سماء زرقاء صافية، واتَّسعت دنياي. اتجهتُ إلى الضفة المقابلة مخلِّفاً أفرورا خلفي. مررت من أمام القصور الفخمة والحدائق المنظَّمة، ورأيت الشَّمس تضرب فتحات الرِّماية القرميديَّة في قلعة پيتر و پول، شمس الشمال نفسها التي تعرفها. ورأيت أبراج الأجراس تخترق زرقة السَّماء الصَّافية. لقد تغيَّرت أشياء كثيرة منذ ذهبت يا راسكولنيكوف لكن المدينة مازالت موجودة في مكانها. أعمار المدن أطول من أعمار البشر، وأطول كذلك من أعمار البيوت والغرف. ربما فهمت هذا أنت أيضاً عندما كنت ترتعد في غرفتك في السَّقيفة. ولتعلم أنَّ النَّاس ما عادوا متعبين تحت أضواء الخمَّارات الباهتة، فأكثرهم مطمئنون إلى مستقبلهم. لكن شرائح السمك في الصَّحن ما زالت هزيلة. وإذا ما حاول سڤيدريكايلوف الانتحار

اليوم أيضاً، فقد يمر من أمامه كذلك كلب قبيح يخفي ذيله بين قائمتيه. إني أعرف أنَّك لن تقتل نفسك مثل سڤيدريكايلوف، بل ستقتل المرابية، ثم إنك ستهوي بالبلطة فقط لأجل القتل، ولأجل نفسك، لكي تثبت لنفسك أنك حر. وسوف ينفلق رأس الشريرة من منتصفه مثل رمانة إلى فلقتين. وسوف ترى الدم، الدم الحار الذي ينبجس ويتناثر عليك.

أنا الآن الوحيد الذي يعرف الفكرة التي تنهش أحشاءك. أنا الوحيد الذي يحسُّ بالقاتل المختفي خلف كيانك الذي يفيض بالحب. لأنني نظرت إلى الناس من حولي بنظرات ذلك القاتل، الناس الذين لم أستطع التخلّص منهم بأية وسيلة. ولم أستطع البقاء مثلك وحيداً. كانت أياماً سيطرت فيها إرادة حماية نفسي على كل ما عداها. إنها أيام المنفى التي لا تنفد ولا تنتهي. بفضلك عرفت الرّاحة فعندما هويت بالبلطة على رأس المرابية، انمحت وغابت الأجساد التي تفوح برائحة التّعرّق، برؤوسها الحليقة بالموس، وبآذانها التي تهتز على الجانبين كالأشرعة، وبأفواهها المخيفة. أنت قتلتها يا راسكولنيكوف! لقد كانت ذنوبي، وندمي، وجروحي المتقيِّحة، وقهري المتراكم. أنت قتلت ذلك كله وأرحتني. بفضلك نعمتُ بالهدوء واستطعت النوم، والانفراد بنفسي. إذ وجدت نفسي مجدَّداً. أما أنت فقد ذهبت إلى أولئك لكي تعثر على شخصيَّتك التي فقدتها في بطرسبرغ،

وصرت واحداً منهم. نفيت نفسك إلى مهجع مكتظ بهم في «بيت ميت». لم يفهم أحد ممن حولك السَّبب الحقيقي لتصرُّفك هذا يا راسّكولنيكوف! أنا الوحيد الذي فهمتك في غرفة مطلة على باحة معتمة في بيتنا في استانبول. والآن وبعد سنوات، وفي امتداد الغرفة نفسها في مدينة أخرى، كأنني أسمع صوت أمك الكساندروڤنا وهي تصرخ بتعجب «لكم هي سيئة غرفتك؟ إني واثقة أن هذه الغرفة هي السَّبب في إصابتك بالانطواء»، وتميل على رازوميه وتهمس في أذنه: «فكر شاب جامعي يئن في قبضة البؤس والانطواء (.)» فكر شاب معتد بنفسه، ويعرف قيمته، يمضي ستة أشهر في غرفة السَّقيفة دون أن يرى أحداً». أجل، بعد سنوات أنا مستلق على سريرك في غرفتك، أفكِّر بك يا راسكولنيكوف! أفكِّر بوجهك النَّاحل الطويل، وبنظراتك الذكيَّة. ويتلوَّى جسمي ألماً في الغرفة الخلفية في بيتنا في استانبول وهو يبحث عن الوحدة والكوابيس تلفُّه. بعد قليل سوف أنهض وأغادر هذا المكان. وعندما يأتي حارس المتحف ليقفل غرفتك سوف يرى فراشك خالياً. بعد قليل سوف أنزل السلالم الضَّيِّقة كما صعدتها، وسوف أعود إلى فندقي، إلى غرفتي الواسعة البهيجة في فندق بيڤروپسكايا.

١٩٨٣

تمت الترجمة في حلب

الأربعاء ٢٨/٦/٢٠٠٦

حديقة مونت سوريـس

لم أكن قد انتقلت إلى شارع فيغوار بعد، في ذلك الصيف. كنت أقيم وزوجتي في زقاق جلاسيير رقم ١٢٣، في منزل مؤلف من غرفتين في الطابق الإضافي، تطلّ نوافذه على باحة مظلمة. مقابل غرفة نومنا مفتوح، لكن مقابل الغرفة الأخرى التي جهزناها لتكون غرفة عمل، يرتفع جدار وسخ بقرميد أحمر. كنت قد وضعت طاولتي مقابل الجدار، أمام طابق يسكنه زوجان متقدِّمان في السِّنّ. وكان عليّ، كلما جلست إلى طاولتي ليلاً وأشعلت المصباح، أن أسدل ستائر النَّافذة، مع أنني كنت أرغب في أن أرى وجهي على الضوء المرتمي على زجاج النَّافذة، وأن أعرف أنَّ هذا الرأس المائل على الأوراق ميلاناً خفيفاً هو رأسي أنا. فإحساس المرء بأنه شخص آخر عندما يكتب إحساس مريح. إذ يتخلص هكذا من السلاسل غير المرئيَّة، ومن قيود الحياة اليومية. ويصبح هو نفسه كما يصبح

شخصاً مغايراً ، يصبح هو والآخر في آن معاً . عندما أشعل المصباح يقترب خيالي المرتسم على الزجاج رويداً رويداً ، ويأخذ مكاني .

فلا أعود أنا من يعثر على الكلمات المناسبة ، بصعوبة بالغة كمن ينضح الماء من بئر ، ويسطرها على الورق ، ويربط الجمل ببعضها ، ثم يحملها من أماكنها ، ويعيد ترتيبها من جديد ، بل يصبح هو . كنت أستطيع العمل ليلاً ، لأنَّ الزَّوجين المسنَّين المقيمَين في المبنى المقابل ذهبا في إجازة . وهكذا لم يعد يتوجَّب علي إسدال الستائر ، فما أن أصعد سلالم الطوابق السِّتَّة وأدخل الغرفة ، وأجلس إلى الطاولة ، قبل أن ألتقط أنفاسي ، وأشعل المصباح ، حتى أشعر باسترخاء جسمي ، وبانزياح الضيق الذي لم يفارقني طوال اليوم ، وبابتعاده عنِّي شيئاً فشيئاً . كانت وضعية الخيال المرتسم على زجاج النافذة هي وضعيتي نفسها . هو أيضاً كان بين الأوراق المتناثرة فوق طاولة قديمة ، وقد تحدَّب ظهره حدبة خفيفة ، وأسند مرفقه على الطاولة إلى جانب المنفضة الملأى بأعقاب السجائر . وفيما هو يكتب بيده اليمنى ، كان يرفع رأسه بين الفينة والأخرى ، وينظر في الفراغ نظرات ساهمة . هو أيضاً ذو لحية ، وشعر أشعث . ألقي فوراً تعب صعود الطوابق السَّتة عن كاهلي . ويصبح هو الآن من يعثر على الكلمات ، ومن يرتبها على شكل جمل كما يشاء ، أمَّا أنا فكنت أستقرُّ في عالم المخيِّلة

المطلق الحريَّة – طبعاً ضمن شروط محدَّدة من الانسجام – حيث فيه كل شيء ممكن. وأتبادل الأماكن مع ذاك، فأنتقل إلى الطرف الآخر من المرآة. تطير الأعمدة من فوقي، وتذرّى الغيوم وتتجمَّع في وجه السَّماء. لأنني أكتب «طارت الأعمدة من فوقي، وذرِّيَت الغيوم وتجمَّعت في وجه السَّماء». وعندما أكتب «الرياح تدير طواحين الهواء تجاه المحيطات». تبدأ الرياح بتدوير طواحين الهواء تجاه المحيطات، فتتحرر معرفتي المتجدِّدة من ثقل الوجود، وتتجنَّح وتطير. وعندما تذرَّى الكلمات، في البيدر المترامي الأطراف للسماء الزرقاء التي أنظر إليها من أسفل المزروعات الذهبيَّة، وتنتشر على الأوراق، تتَّسع دنياي، وتتساقط الجدران. كان ذلك الصيف جميلاً جداً. ولم أكن قد انتقلت إلى شارع فيغوار بعد. فبعد أن نتنزَّه في حديقة مونت سوريس عند المغيب، كانت زوجتي تذهب إلى السينما، أو تذهب لزيارة إحدى صديقاتها التي لا أتذكر اسمها الآن. أما أنا فأسرع إلى البيت فوراً، وأجلس إلى طاولتي، فاستمتع بوحدتي و بحرِّيَّتي اللا محدودتين، حتى ساعة متأخِّرة من الليل.

لسبب ما كان ذلك الصَّيف لاهباً بشكل غير معهود، حتى أن الصحف كتبت عن تساقط الجمر على باريس. ولكي لا تزعجني زوجتي صارت في البداية تقضي ليلة نهاية الأسبوع، ثم صارت فيما بعد تقضي الليالي كلها مع صديقتها. لكننا لم نتخلَّف مطلقاً عن

نزهاتنا سويَّة في حديقة مونت سوريس . إذ كنا نتهاتف عند الصباح ، وبعد أن نتناول طعام الغداء سوية ، كنا نذهب إلى الحديقة ، فنجلس على أحد المقاعد على حافة بحيرة البجع ، ونتجاذب أطراف الحديث حتى المساء ، فتروي لي زوجتي الفيلم الذي شاهدته ، أو تحدِّثني عما فعلته هي وصديقتها . أما أنا فكنت أراقب البجعات البيضاء المنسابة في البحيرة ، والبطات برؤوسها الخضراء ، والأسماك بحراشفها الملوَّنة وهي تقفز أمامنا دون انقطاع . لم يكن صمتي يثير اهتمام زوجتي ، فهي تعرف أنني لا أحب التحدث عن كتاباتي . كانت أغلب الأفلام التي تذهب بمفردها ليلاً لمشاهدتها أفلام رعب . وقد ازداد تعلقها بهذا النوع من الأفلام منذ أن بدأنا حياتنا المشتركة . وكانت أحياناً تجرُّني أنا أيضاً خلفها . فأضطر مرغماً إلى متابعة جرائم دراكولا ، وأشاهده بلا مبالاة كيف يمتص دماء النِّساء الشَّابَّات الجميلات بأسنانه الأمامية التي تبدأ بالتطاول ما أن يحلَّ الليل . وهكذا حفظت غيباً كيف يوقع جاك باقر البطون بضحاياه في الفخ في أزقة لندن الضبابية . وخططه التي يضعها للإفلات من رجال الشرطة . وكيف يتنكر دكتور فرانكشتاين في هيئات وشخصيات مختلفة . أما زوجتي فكانت تتابع هذا النوع من الأفلام بتذوُّق جديد في كل مرَّة . كانت سعيدة في دنيا الأشباح الفارَّة من قبورها ، والوحوش التي تعيش إناساً في النهار ، وذئاباً في الليل . كانت هواية زوجتي هذه ضامناً لحياتنا المشتركة بوجه من الوجوه . فزوجتي مَلَك فعلاً

في حياتنا اليوميَّة مثلٍ اسمها. ويبدو أنها برؤيتها لأفلام الرعب تلك كانت تهدِّئ وتسكن ميلها للقتل المترسِّخ في لا وعيها. ولم يكن في هذا سعادة قليلة بالنسبة لرجل جبان مثلي يعيش في حياتها. فكلما جلسنا على حافة بحيرة البجع عند المساءات، لا بدَّ أن تروي لي فيلماً مرعباً، فتتحدث عن الوحوش أنصاف الإناس وأنصاف الحيوانات، وعن الأشباح التي تتجوَّل في البيوت ليلاً وتشرب دماء الأطفال. لم يكن ما تحدثني عنه من أشياء يتناسب مطلقاً مع سكينة حديقة مونت سوريس ومع ظَرْف البجعات. لكنني لكي لا أكسر خاطر زوجتي، ولكي أديم حياتي الزوجية المريحة، كنت أستمع إليها. كانت تصمت أحياناً وتجول ببصرها في الأشجار الضخمةِ الكثيفة الأوراق بدءاً من حافة البحيرة الأخرى. وكان توقُّفها عن الحديث في النقطة الأكثر إثارة في الفيلم، وسكونها وشرودها فترة في أعماق الحديقة يزعجني. لكن حالتها الساكنة هذه لم تكن تستمر طويلاً. فبعد فترة صمت وجيزة، كانت تمسك بيدي بمحبة، وتكمل حديثها من حيث توقفت، بصوتها العذب. فترتاح يدي في يدها البيضاء الناعمة، وهي تقول: «لم تنم ليلة البارحة أيضاً مطلقاً»، «يبدو ذلك واضحاً من ارتجاف يدك التي كتبت بها حتى الصباح، أما أنا فقد نمت قريرة العين كعادتي دائماً».

لم تكن في حياتي امرأة أخرى تفهمني هكذا جيداً، وأحس بالود نحوها والتعلق بها، ولخوفي من أن أفقدها، كنت أنفِّذ جميع

طلباتها، وأفعل ما بوسعي لكي تستمر حياتنا المشتركة. كنا نعتبر سعيدين، أسعد بكثير من الأزواج الذين يعيشون معاً لحظة بلحظة، ويراقبون بعضهم بعضاً باستمرار. نحن كنا نمضي النهار معاً، ونفترق ليلاً. وهذا لم يكن ذلك الصيف فقط، بل كان تفاهماً اتفقنا على أن يستمر طول العمر. فبعد تناول طعام الغداء، كنا نتجوّل في حديقة مونت سوريس، ونحن نتحدث بين الأولاد الذين يلعبون في حوض الرّمل، والموظفين المتقاعدين، والأمهات الشابات. ثم كنّا ننام متعانقين فوق الأعشاب. أحياناً عندما نرغب ببعض، كنا نعود فوراً إلى بيتنا القريب من الحديقة، والحب الذي نبدأ بتبادله على الدرج، نستمر بتبادله في الفراش حتى المساء. زوجتي جميلة ذات بشرة سمراء. امرأة جذابة بصدرها العامر وكفليها العريضين. لكنّها كانت متحفظة قليلاً، وتطلب مني أن أقف بعيداً عنها في الزحام، وأن لا ألمس أماكنَ من جسمها هنا وهناك، وتؤنّبني دوماً بسبب هيجاني. عندما يحلُّ الليل كانت هي تعود إلى أفلامها المرعبة، وأنا إلى رأس طاولتي.

خيالي كان مرتسماً على زجاج النافذة كل ليلة. وكنت أستطيع رؤية نفسي، عندما أرفع رأسي أحياناً وأنظر إلى الطرف المقابل. كان هناك رجل مائل على الأوراق يكتب بلا انقطاع على ضوء المصباح. وكل كلمة يكتبها، وكل بطل قصة يلد من مخيّلته، يبني جداراً بينه وبين واقعه، ويبعده عن حالته وعن مكانه الضَيّق في

غرفته المكدَّسة بالكتب. إنه يعيش الآن في عالم الكلمات التي يكتبها، والأشخاص الذين يبتعد عنهم. فيخرج في رحلات إلى ما وراء البحار، ويتجوَّل في شوارع المدن البعيدة المزدحمة، وفي أزقتها المشمسة. كان بكتابته يرغب في احتضان كل شيء. يودُّ أن يحتضن البحر، والرِّيح، وأشجار الحور في السُّهول، والصحراء التي تمتد بلا نهاية، وقوافل الجمال في الصحراء، والبدو، والأمواج التي ترتفع كالجبال في المحيطات. كل شيء، كل شيء. وكان أحياناً ينزوي في غرفة، وينزل بجسمه الهائج في عتمة فراش لا نهائية، ويصلب تحرُّره و يشتدُّ كلما كتب. ولكي يرى الآخرين في نفسه، ولكي يستطيع التَّحرُّش بالنساء اللواتي تخيَّلهن، كان يبتدع قصصاً غير واقعية؛ ومصادفات مختلفة، ويرتب لقاءات جذَّابة. لكن هذا العالم الذي ابتدعه كان ينسلُّ ويفلت من بين يديه في كلِّ مرَّة. فتتطاير في الفضاء مثل فقاعات الصابون: المدن التي زارها، والنساء اللواتي تلهَّف عليهنَّ، والطبيعة التي احتضنها بانفعال، والفرش المعتمة التي نزل في قراراتها. ولا يبقى منها أي أثر. في تلك اللحظة كنت أنهض وأفتح النافذة، وأثناء نظري إلى السَّاحة المظلمة الصامتة كان يلفُّ أعماقي شعور بالوحدة لم أعهده. فأشعل سيجارة، وأغلق النافذة، وأعود إلى طاولتي وأتابع الكتابة من حيث توقفت.

ذات ليلة ، حين جلست إلى طاولتي وأشعلت المصباح استعداداً لكتابة قصة جديدة ، انتبهت إلى أن الجو حارٌّ فوق العادة . خيالي على زجاج النافذة كما هو دائماً ، لذلك لا يمكنني أن أنهض وأفتح النافذة . أما نافذة الغرفة الجانبيَّة فلا تحمل برودة كافية . كانت الغرفة تلتهب كالفرن تحت الأعمدة التي تكويها الشَّمس طوال النَّهار . التصق قميصي بالمقعد الذي أجلس عليه ، وتجمَّعت حبيبات العرق على جبيني ، وكادت أن تنهمر على الأوراق . نهضت وأخذت دشّاً بارداً ، لكن حبيبات العرق تجمَّعت من جديد على جبيني بعد فترة قصيرة . لم أشأ أن أتوقف عن الكتابة ، فالقصَّة تسير وتتقدَّم جيِّدًا جداً ، بحيث يمكنني إنهاءها عند منتصف الليل إذا استمررت على المنوال نفسه . أثناء نزهتنا المسائيَّة في حديقة مونت سوريس حدَّثتني زوجتي عن الرَّسام روسو ، وأنه عمل فترة جمركيّاً في هذه الحديقة . ففي تلك الفترة كانت إحدى أبواب جمارك باريس موجودة هنا . لم أستطع أن أقيم أيَّة علاقة بين النباتات الاستوائيَّة ، والمخلوقات العجيبة ، والألوان الغريبة في لوحات روسُّو التي ترحل بالمشاهد إلى عالم حلم لا مثيل له ، وبين حديقة مونت سوريس . فالحديقة صارت بالنسبة لي استمراراً للحياة اليوميَّة ، وللتوازن العائلي .

فالأمَّهات كن يأتين لكي ينزِّهن أطفالهن ، والمتقاعدون لكي يتذكروا أيامهم الماضية الحلوة أو المرَّة ؛ أما الشبَّان والشَّابات فلكي يستلقوا على الأعشاب رغماً عن حارس الحديقة ، ويتبادلوا القبلات ،

وأثناء غروب الشَّمس عند المغيب ، لم يكن هناك ما يمكن أن يقال عن سعادة وبهجة الأطفال فوق الألعاب الدَّوَّارة ، إذ كانوا يتصايحون وهم يمتطون الأحصنة البنِّيَّة ، وأحدث سيَّارات السِّباق ، والغزلان ذوات القرون المتشعبة ، والأرانب ذوات الشامات ، ويدورون بها مسرعين . وكانت البجعات والبطات في البحيرة كذلك تغدو مَرَّة وتروح أخرى باتجاه الشَّمس التي تغيب رويداً رويداً .

تسوَدُّ أشجار الحور على حوافِّ البحيرة عند المساء ، ويقل الزِّحام الذي كان يملأ أرجاء الحديقة ، إذ تعود الأمهات مع أولادهن إلى أعشاشهم السعيدة ، ويعود العشَّاق إلى ملاهي المدينة . ما أردت قوله أنه ليس هناك للوهلة الأولى أي شبه بين عالم روسُّو ، وبين حديقة سوريس .

عندما افترقت عن زوجتي ، وعدت إلى البيت ، كانت الظلمة قد حلت منذ زمن طويل . بحثت في المكتبة عن أشياء تتعلق بروسُّو ، فعثرت على كتاب يتضمن صور بعض أعمال الرَّسَّام . وأثناء تقليب صفحات الكتاب فهمت كيف تتغيَّر حديقة مونت سوريس ، فتصبح أشجارها أشجاراً استوائيَّة ، وتصبح بجعات وبطات البحيرة طيوراً ملوَّنة ، وفي الزَّوايا المتطرِّفة بعيداً عن الازدحام العائلي ، تجرُّ المخلوقات المرعبة الإنسان إلى نوم عميق ، وهو وإن لم يتبيَّنها تماماً إلاَّ أنها تسحبه إلى ظلمة أجسامها المكسوَّة بريش مبلل .

خطر ببالي أن أكتب قصة إحدى لوحات روسو. ورغم أنَّ أصدقاءه المقرَّبين كانوا يظنون أنه خرج في رحلات عبر البحار وسافر إلى بلاد بعيدة، ورسم هناك مشاهداته، عرفت أنَّ روسّو في الواقع لم يغادر باريس مطلقاً، لذلك قرَّرت أن أكتب عن أغرب لوحات الرَّسَّام «المرأة ذات الأفعى». وفكرت في أنَّ هذا المخلوق ذا الجسم الممتلئ المغطى بالرِّيش، والعينين البرَّاقتين، والأفعى المخيفة الملتفَّة حول عنقه، قد يظهر أمامي فجأة أثناء تجوالي في حديقة مونت سوريس. هذا المخلوق الذي يعزف النَّاي تحت شجرة استوائية تتراقص الأفاعي السَّوداء بين أغصانها المرتفعة في السماء ملتوية متعرجة، وتقف الطيور الخضراء على أوراقها الضخمة، هل كان امرأة؟ أم كان الإله بان ذا قوائم الماعز الذي يلاحق جنيَّات الغابة ويحبِّلُهن؟

عندما جلست إلى الطاولة لأكتب، لا عن اللوحة نفسها، وإنَّما عما أيقظته في نفسي من تداعيات كانت القصة جاهزة مكتملة في رأسي. كنت سأكتب عن خروج البطل من لوحة روسو، وتنزُّهه نزهة ليليَّة تحت ضوء القمر في حديقة مونت سوريس. حيث يذهب ذات ليلة بمفرده إلى الحديقة التي اعتاد أن يتنزَّه فيها يوميَّاً مع زوجته. فيلتقي بهذا المخلوق العجيب، ويسير خلفه ليكتشف أسرار وخفايا مونت سوريس وجمالها الخارق، وهو الذي كان يظن أنه يعرف كل زاوية فيها. وبعد أن يتعرَّض لأحداث مختلفة، سوف يعود مع شروق الشَّمس إلى بيته وإلى حياته اليوميَّة الاعتياديَّة.

بدأت الكتابة بحماس . ومثل كل ليلة اقترب مني خيالي الذي على الزجاج ، ورويداً رويداً أخذ وضعيتي على الطاولة ، وراح يبحث عن كلمات وجمل تناسب طراز ألوان لوحات روسو ، وعن مرادفات لغويَّة لتلك المخلوقات الخاصة بعالم بين الحقيقة والخيال . وبدأ يسمع حفيف الطبيعة الباعث على الرِّيبة ، وعلى أقصى درجات الرَّاحة بآن معاً . هذا الحفيف الغريب الذي سمعه في سكون الليل هو الذي أراه الطريق .

والألحان الصَّادرة عن الناي الذي يعزف عليه المخلوق الغريب المُراش ، تختلط بصفير الأفاعي . والرسوم التي لم يرها مطلقاً قبل اليوم ، تغوص تارة في مياه البحيرة السَّاكنة البرَّاقة تحت ضوء القمر ، وتصعد تارة أخرى ، قبل أن تتحوَّل إلى كلمات .

كنت مستغرقاً في الكتابة ، تاركاً نفسي لسحر روسو . وعندما رفعت رأسي عن الأوراق لحظة ، ونظرت أمامي ، انتفضت مذعوراً . كان خيالي ممحياً عن الزجاج ، قفزت من مكاني فزعاً وعاينت النافذة ، إنها مغلقة . عدت إلى طاولتي وأمعنت النَّظر في الزُّجاج: لم يكن الرَّجل ذو اللحية الذي يكتب كل ليلة موجوداً هناك . فركت عينيَّ ونظرت مجدَّداً: لم يكن خيالي أو أي خيال آخر موجوداً على الزجاج . أطفأت المصباح فوراً . وانتظرت فترة طويلة في الظلمة . كنت أسمع ضربات قلبي ، ولا أستطيع

بشكـل من الأشكال تقرير ما يجب علي فعله. أشعلت المصباح بأمل، وعندما رأيت خيالي على الزجاج تنفَّست الصعداء. تابعت كتابة القصة من حيث وصلت، وكأن شيئاً لم يكن. لكن عندما رفعت رأسي عن الأوراق بعد فترة ونظرت قبالتي لم أرَ شيئاً على الزجاج. اختفى خيالي ثانية. أطفأت المصباح وانتظرت فترة ثم أشعلته مجدَّداً، فلم يظهر خيالي أو أي شيء آخر على الزُّجاج. أشعلت مصباح منصَّة الزينة وملت على المرآة أنظر فيها فلم أرَ شيئاً بتاتاً. لا أذكر كيف ومتى نزلت درجات الطوابق الستة، وفتحت باب الزقاق وخرجت أسير في شارع رايل. وحين وصلت إلى باب حديقة مونت سوريس الجانبي كنت ألهث لهاثاً متواصلاً، وجسمي يتصبب عرقاً بارداً كالثلج. وأرتجف في الجو الحار الخانق. قفزت من فوق السور ودخلت الحديقة، لا يوجد أحد فيما يبدو. على اليسار أضواء محرس حارس الحديقة، المؤلف من طابقين، مطفأة، ولا ينسلُّ من نوافذه المفتوحة أدنى بصيص من نور. لا بدَّ أنَّها ساعة متأخرة من الليل. سرت بخطوات مجفلة نحو المقعد الذي أجلس عليه مع زوجتي كل مساء وتهالكت عليه. الليل ساكن. سرحت فترة في مياه البحيرة المظلمة. ضوضاء المدينة لا يصل إلى حيث أجلس. فكرت في تفرُّق رواد دور السينما، وخفوتِ حركة عبور السيارات في الأنفاق المضاءة، وتضاؤلِ عدد الجالسين على أرصفة المقاهي شيئاً فشيئاً. وشعرت بمرارة غريبة في نفسي. لن أستطيع العودة إلى

البيت الآن ، فمازلت تحت تأثير الحالة المخيفة التي عشتها قبل قليل . ولا أملك القدرة على الجلوس ثانية إلى طاولتي وإشعال المصباح . ربما لم أعش مثل هذه الحالة ، ربما لم يكن فقدي لظلي في المرآة حقيقة واقعة. ربما تملكني الخوف فترة فتوهّمت ذلك . ربما لم تتبيّن عيناي جيداً من شدّة التعب . لكنني لن أستطيع العودة إلى البيت هذه الليلة بعد الآن . رغبت في أن أعثر على زوجتي عند صديقتها وأن أقضي معها ليلة صيفية لم أقضها معها منذ أيام . لن أحدث زوجتي عن هذه الحالة. وفي اليوم التالي ، وبعد أن أرسلها إلى السينما وكأن شيئاً لم يحدث ، سوف أجلس إلى طاولتي ، وأكمل كتابة قصتي من حيث توقفت . أراحتني هذه التخيلات تماماً ، وفيما كنت على وشك النهوض من مكاني ، لامست يد كتفي . التفتُّ ونظرت فلم أجد أحداً ، وفي اللحظة نفسها سمعت حفيف أوراق الأشجار ، مع أنه لم تكن هناك أدنى نسمة في الهواء . أردت أن أنهض وأن أركض نحو السور وأن أهرب وأنجو من هذه الحديقة المشؤومة . لكنني كنت جامداً في مكاني بلا حراك. لم أكن أستطيع حتى التحرك لا النهوض ، وكأن أحداً ما يشدُّ جسمي إلى الأسفل بقوة خفية . وهكذا بقيت في مكاني كتمثال من الرُّخام . البحيرة مظلمة . أذكر تثاقل جفنيَّ شيئاً فشيئاً ، وارتفاع المياه من قدميَّ حتى ركبتيَّ وتغطيتها جسمي كله . وسحبها إياي إلى أعماقها .

غفوت بشكل ما. وعندما استيقظت كنت لا أزال فوق المقعد. تحسَّست ملابسي، إنها رطبه. كان القمر طالعاً . . . ونور قمر مكتمل كبير يضرب البحيرة ويجعل مياهها فضية. لكنه لم يكن ينير كل مكان، فنصف البحيرة كان مظلماً، ولا تبدو البجعات والبطّات، ولا بدَّ أن الأسماك كانت نائمة. لم تكن هناك أدنى ارتعاشة على سطح الماء. وفجأة انسلت بجعة بيضاء من طرف البحيرة المظلم واقتربت ووقفت أمامي. وعلى نور القمر لاحظت أن جناحيها زهريان، وأن عنقها طويل وأخضر. ثم انسلت وانسحبت كما جاءت سابحة فوق الماء، واختفت في الظلام. نظرت وإذ بزوجتي تجلس بجانبي. لم تدهشني رؤيتها في حديقة مونت سوريس في مثل هذه السَّاعة من الليل. كنا كأننا في إحدى نزهاتنا المسائية. كل شيء كان عادياً، البجعة، وحفيف الأوراق، وثيابي الرطبة، وسكون الليل، كل شيء. أدارت زوجتي وجهها نحوي وقالت: «كنت أعرف أنك ستأتي»، «كنت أعرف أنك ستتخلص ليلة ما من ضوء المصباح ومن إسارتك المخيفة لما تظنه الحرية، وستأتي إلى هنا».

قلت بصوت متهدِّج «ما عاد بإمكاني الكتابة!» وجاشت في نفسي مشاعر الأسى على الأوراق التي تركتها مبعثرة فوق طاولتي، فرحت أجهش بالبكاء. جالت بيديها في شعري وقالت:

«لا تحزن ، ودعك من البكاء كالأطفال . انظر إني بجانبك ، فكّر بي أيضاً قليلاً ، فكّر بانتظاري لك هنا كل ليلة ، فكّر بوحدتي» .

صرختُ: «لا أصدّق أنك كنت تمضين لياليك بانتظاري ، كنت تلهين كل ليلة لهواً مختلفاً!» .

قالت: «كل ما حكيته لك كان كذباً ، حتى الأفلام التي رويتها لك . إذ كنت آتي إلى هنا خفية كل ليلة ، عندما تعود إلى إسارتك ، وأتجول في الحديقة» .

سألتها بفضول: «حسناً ، ولكن لماذا؟»

اندسَّت بجانبي ، وكما تفعل دائماً أخذت يدي داخل يدها البيضاء الناعمة ، وتمتمت :

«لا يمكنك أن تعرف» ، «لا يمكن لشخص يعيش أسير الكلمات على ضوء مصباح ، أن يعرف حرِّيّة الجسد اللا محدودة» .

انتبهت لحظتها أن يدي تلامس جسماً مبللاً ذا ريش . تغيَّر وجه زوجتي فجأة ، وطال شعرها ، واتّسع فمها ، ولاحظت فخذيها يتضخّمان ، وصدرها يكبر ، والريش يغطي كافة أنحاء جسمها . جذبتني إليها بعنف ، ولصقت فمها الكبير المظلم بفمي ، وضغطت جسدي على جسدها .

ثم صاحت بصوت متهدِّج، والبريق الأسود يزداد في عينيها «هيَّا !»، «هيا! لم يبق لدينا وقت نضيِّعه! فالشمس سوف تشرق عما قريب. فلنستمتع بجمال الحديقة إلى أن يعمَّ الضياء».

نهضنا عن مقعدنا وخلعنا ملابسنا، ورحنا نركض مخلفين وراءنا الأحصنة الدَّوَّارة بقبعاتها وأجسامها الزهريَّة، التي يمتطيها الأطفال الأصحَّاء ويتصايحون وهم يدورون بها طوال النهار، وحوض الرمل الذي تراقبه الأمهات العاقلات الوقورات من فوق مقاعدهنَّ بصبر. يدي مازالت في يد زوجتي المبللة المراشة. كنا نركض بسرعة غير متوقعة من أرجلنا الغليظة وجسمينا الضخمين، ونسحقُ الأعشاب تحت ضوء القمر ونحن نطلق صيحات متحشرجة. مررنا من تحت الأشجار الاستوائية التي تتراقص الأفاعي السوداء بين أغصانها المرتفعة في السَّماء ملتوية متعرِّجة، والتي تقف الطيور الملوَّنة الخضراء - الزهريَّة في ظلِّ أوراقها الضخمة ذات الحفيف، ودلفنا إلى أعماق الحديقة.

١٩٨٤

تمت الترجمة في حلب

مساء الخميس ٥/١٠/٢٠٠٦

الطيور العمياء

دخلت الغرفة، أشعلت المصباح وجلست إلى طاولة العمل. فرأيت من خلال النافذة المفتوحة جدران فندق دي سَنْس الحجرية، والأبراج، وفتحات الرماية، والصليب الرفيع في أعلى البرج الاسطواني المرتفع في السماء. كان عيسى يتصبَّب عرقاً في ليلة صيفيَّة حارَّة.

انفجرت في السماء حزمة أضواء زرقاء وخضراء وحمراء وصفراء ثم تبعتها أخرى؛ وأخرى؛ وتحولت السماء إلى حديقة أزهار. هذه الأزهار التي كانت تتكاثر كلما انفجرت، وتشعُّ بالألوان الزاهية في ظلمة السماء كلما تكاثرت... تساقطت من بين النجوم على نافذتي قطعاً زرقاء وخضراء. فردَّدت في نفسي المقولة التركية، جاءت في وقتها تماماً. يجب أن أبدأ بكتابة قصتي هذه ليلة ١٤ تموز التي تضيء فيها الألعاب النَّارية سماء باريس، في

الذكرى السَّنويَّة لليوم الذي أسقط ودمَّر فيه الشعب الفرنسي قلعة الظلم والاضطهاد.

كان بطل القصة التي أتهيَّأ لكتابتها منذ زمن شاعراً تركيًّا قضى أجمل أيام عمره، وأكثرها عطاء، في سجن في قفار الأناضول. أبيِّن فيها كيف مات في المنفى شاعر وصف نفسه بأنه «عاشق من قمته إلى أخمص قدميه». بدأت بالكتابة. وعندما أنهيت الجزء الذي وصفت فيه المدينة البيضاء التي عاش فيها الشاعر بعيداً عن موطنه وعن لغته الأم، كنت أتصبَّب عرقاً. ولكي أرتاح قليلاً استسلمت لسكون ليلة تموزية خانقة، وانتظرت عسى أن تهبَّ نسمة ما من النافذة المفتوحة أمامي. الاحتفال بالعيد انتهى، وساحة فندق دي سَنْس التي كانت تنيرها أنوار الألعاب النارية غرقت في الظلام. فالخزانات الملونة التي كانت تستعمل كمكتبة، والجدران الحجريَّة التي تعلوها الطَّحالب، والنافذة الصغيرة التي راقبت منها الملكة مارغو إعدام الفتى الذي قتل عشيقها جوليان دات، وكل شيء، كل شيء كان مظلماً. ضوء المصباح يطل على الساحة، لكنه ولسبب ما لم يكن يضيء أي مكان، حتى ولا مساحة صغيرة. ولكأن وجه الساحة المعتم تحوَّل إلى صفحة الورقة البيضاء الضيِّقة التي اصف عليها بنظام معيَّن ما أُلتقطه من جمل تدور في ذهني. وصار مكاناً تقع عليه منهكةً الجملُ التي تتخبَّط من جدار إلى جدار وهي تجاهد

للخلاص من زنزانات سجنها، وللظفر بحريتها، فترتبها وتنظمها قدرة المعرفة بعد أن تفقد الأمل في حريتها وخلاصها. صارت ساحة فندق دي سَنْس ساحة لتدريب أسراي الأحبَّاء من الجمل التي أرتبها على الطاولة، وأضعها في مواضعها بحسب قواعد علم الكلام. أي باختصار الجمل التي أحاول التحكم في ترتيب تناسقها وتوازنها. وكنت أوجِّهها وأدرِّبها بسهولة من حيث أجلس، فأصفُّها وألقيها وأنهضها كما أشاء في ظلام السَّاحة المحاطة بالجدران العالية.

هكذا كتبت حتى ساعة متأخرة من الليل. وكانت القصة على وشك الانتهاء. وفيما كنت أفكر كيف سأوصل للقارئ المعنى الرمزي لموت الشَّاعر صباحاً وهو يمدُّ يده إلى صندوق البريد ليأخذ الصُّحف، وكيف استلمه الموت فجأة وهو واقف، دخلوا من النافذة المفتوحة. ظننتهم في البداية فراشات متجهة نحو ضوء المصباح. لكنَّ صَفْقَ أجنحتهم أحال الغرفة بلمحة إلى جهنم. وما كان أكثرهم

يا إلهي! هجم أحدهم على المصباح، وهجم الآخرون عليَّ. غطيَّت وجهي بيديَّ لكي أحمي عينيَّ. إنَّها الطيور العمياء! طيور ظلام الليل! كانت تخبط نفسها من جدار إلى جدار. وريشها الأسود يتساقط على الطاولة وهي تطير وتصيح. كانت تتزوَّد بالهواء من ساحة فندق دي سَنْس ثم تهجم علي فتنقر دماغي بمناقيرها. هل

تريد الثأر للجمل المتمردة التي سجنتها في الورقة البيضاء يا ترى، أم أنَّها تشنُّ علي هذا الهجوم الضاري لتعرقل كتابة قصَّة الشَّاعر الكبير؟ تدحرجت عن الكرسي على الأرض، وفي رأسي الذي تنقره آلاف الطيور القادمة إلى غرفتي من دهاليز العصور الوسطى تتردَّد أصداء جملة الشَّاعر الأخيرة في قصتي التي بقيت في منتصفها: «ادفنوني في مقبرة قرية أناضولية! ادفنوني!».

١٩٨٥

تمت الترجمة في حلب

مساء السبت ٧/ ١٠/ ٢٠٠٦

أطـلس

إني في الطائرة ، أحلّق وحيداً بين الغيوم ، الشمس تتغلغل من عينيَّ إلى داخلي كلما انقشعت زرقة الغيوم ، الشمس العتيقة حارسة حضارة البحر الأبيض المتوسط . وأفكر في أنَّه لابد من وجود ارتباط جسدي بيني وبين الجغرافيا . ففي الأسفل وعلى عمق عشرة آلاف متر يمتد البحر الأبيض المتوسط بمياهه الزرقاء التي عشت فترة طويلة على سواحلها . إنه قريب ومحبَّب ، ومزبد كفم حصان ، ولا أثر الآن للخوف الذي انتابني العام الماضي أثناء عبوري المحيط . فالبحر الأبيض المتوسط يعتبر نوعاً ما كبطن أم ، إذ عشت حياتي كلها في محيطه . ولا أشعر الآن بالخوف الذي شعرته أثناء عبوري المحيط –كالدفع من بطن الأم إلى الخارج ، والسقوط في الحياة فجأة بزلزلة رهيبة – . لقد عشت في زوايا الأطلس الزرقاء والخضراء والبنيَّة حتى اليوم ، وأعرف مدنه وأنهاره وجباله ووديانه . ويبدو أن هذه الطائرة

لا تقلّني إلى مدينة اسمها الجزائر، بل إلى ساحة أطلس صفراء. إلى صحراء خنقتها بالغابة قبل سنوات.

كانت الصحراء مساحة بيضاء في البداية، كما كانت الجبال والأنهار والمحيطات والغابات بيضاء كذلك. لم أجد صعوبة في قراءة الكلمات المتناثرة في فراغات «أطلسي الملوَّن» الذي أهدي إلي كهدية ختان. فقد كنت في الصَّف الثالث الابتدائي على أي حال:

المحيط (كحلي). البحر (أزرق). الجبل (بني). النهر (أزرق فاتح). الغابة (خضراء). الصحراء (صفراء). كانت أقلامي الملوَّنة عند فراشي. ولِضيقي لوَّنتُ طاقيَّة الختان بالأحمر، وخططت خطوطاً سوداء فوق الملاءات. الحَرُّ لا يطاق، وجرحي لم يلتئم بعد. والسَّاعة الرمليَّة الصغيرة — هي أيضاً هدية ختان — تسيل نحو المساء. بدأتُ بالمحيط، وبلمحة امتلأت الصفحة باللَّون الكحلي. فقد أحاط محيط عميق وهادر بالقارات الخمس. وزحف اللَّون الكحلي على آسيا في بعض الأماكن. وعلى القارات الأخرى في بعض الأماكن، وزحف حتى داخل الأشكال المكوَّرة البيضاء التي علمت بعد ذلك بوقت طويل أنها اوستراليا وأفريقيا الشمالية. فالقلم كان ينزلق من بين أصابعي المتعرِّقة فتختلط الألوان ببعضها. وبقي البحر الأبيض المتوسط فارغاً وكذلك البحر الأسود، وبحر الخزر الذي يبدو كبقعة في وسط آسيا. قرأت بصعوبة بالغة كلمة بحر

المكتوبة داخل كل منها بأحرف صغيرة، فلوَّنتها باللَّون الأزرق. أما البياض الذي كتب فوقه جبل فقد خططت فوقه خطوطاً بنِّيَّة على طول سواحل المحيطات. وغطَّيت وسط أفريقيا بغابة كثيفة الأوراق لم تدخلها فأس. وعندما حان دور الأنهار تردَّدت قليلاً. فقد قال معلمنا إن الأنهار تنبع من الجبال وتصبُّ في البحار، مع أنني كنت أعتقد العكس تماماً.

فلابد أن تنبع الأنهار من البحار، وتجري نحو البرِّ، وتضيع بين جنبات الجبال العارية التي تدفئها الشمس. أمسكت بالقلم الأزرق الفاتح، وحين بدأت بتلوين نهر النيل ساحباً إياه بعناد من البحر الأبيض المتوسط نحو أفريقيا، لاحظت أن كلمة «صحراء» ملوَّنة باللون الأخضر. كنت قد وسَّعت الغابة ولم أدع مكاناً للصحراء في الأطلس، مع أن الأصفر كان أحبَّ الألوان إلي. فقد كنت أشبِّه كل ما بقربي وما حولي بشعر أمي، فألون كل ما في دفتر التلوين من طيور وأزهار وسماء وأراض باللَّون الأصفر. وَبَرُ قطَّتي التي تغفو طوال الليالي في حضني أصفر أيضاً، أصفر منقَّط مائل للبياض. أما أمي فكانت تماماً كأرض قمح تذرو أكداسه الرياح. ضياؤها يضيء دنياي، ودفؤها يحيط بي من كل جانب. القلم الأصفر بيدي. رحت أبكي يائساً، فقد ذهبت أمي إلى الجيران

لتهتف للممرِّض الذي تأخَّر عن موعد تغيير الضِّماد ، ووقفت خالاتي للصَّلاة ، وهبط المساء في الخارج .

مازلت أذكر إحساسي بدخول ريش عدَّة شياطين من النَّافذة المفتوحة ، وتطايرها فوق طاقيَّة ختاني ، وبألم جرحي يتزايد أثناء بحثي في «الأطلس الملوَّن» عن مكان للصحراء ، وبقشعريرة بدأت من عانتي وسرت إلى بطني ، فراح جسمي كله يهتز ويرتجف .

كانت الصحراء بياضاً في البادية ، ثم خرجت من باطن الكتب والروايات التاريخية التي قرأتها ، وتوضَّعت كخيال في ذهني ، فاصطفَّ البدو ذوو الوجوه المحروقة ، وقوافل الجمال ، والليالي الملأى بالنجوم ، بالتتالي ، وسدُّوا الفراغ في لمحة . وتراكمت خيالاتي فوق بعض ، عن الأمير الصغير ، وعن محمدٍ ذي الوجه الجميل ، ومكة والمدينة ، كانت طيور الأبابيل موجودةً أيضاً بينها ، وقريشٌ ، والعواصف الرَّمليَّة ، وظلُّ رامبو الذي ترك الأزقة الملتوية في أوروبا المتخلِّفة بعد أن فشل في الشِّعر ، وهرب إلى هَرار ، والقرآنُ ، ومنقوعُ التَّمر ، والسُّيوفُ الدَّامية ، وحرفُ الألف ، والماء وسرابُه ، وليلى والمجنون ، والحسنُ والحسينُ ، ومعارك سيِّدنا علي . فعملت من هذا كله بنياناً . أما الفراغات التي بقيت هنا وهناك ، أو التي احترقت مسودَّاتها ، نتيجة تعرُّضها لأشعَّة الشَّمس ، فقد ملأتُها بمعارف حصلت عليها حديثاً . فقمر مستدير

أحمر يبزغ من جانب الأفق تماماً فوق الصخور العارية، وفراغ، فراغ يمتد على مد البصر. وفي البعيد على سفوح التلال خيام البدو الرُّحَّل. وإناء طعام ترك ليبرد ببرودة اللّيل، وطفل منفوخ البطن، وجمال ثقيلة متعبة، وربما بضع نساء، وأوان نحاسيَّة، وعجوز جلس وحيداً بجانب النَّار تحت ضوء القمر، كأنه يجلس هناك منذ بدء الخليقة، ساهماً مفكِّراً، وظلال اللَّهب تتراقص على لحيته، ومدينة بعيدة في ذاكرته.

هل هناك فعلاً مدينة بعيدة في ذاكرته؟ لا أعرف فقد جلس جاثياً على ركبتيه أمام النار، وفي نظراته المتعبة تعلَّق تاريخ مجهول لمدينةٍ واحة وسط الصحراء. فالأسطر القليلة التي استنقذت من النار، من التاريخ المجهول، الذي كتبه على جلد غزال، خطاط قطعت يده اليمنى، فربط على رسغه قصبة وكتب بها، تفيد ما يلي:

(...) الذي يشرب الشمس أعمى. الجدران البيضاء الأسوار الرماديَّة لمدينة بلا نوافذ، والأزقَّة الضيِّقة المتعرِّجة التي تنفتح فجأة على ساحات باردة. هذه الساحات غير المشجَّرة والمتطرِّفة أكثر من ظل النخيل، لابد أنَّ فيها بئراً جفَّت مياهه منذ زمن بعيد. فالذباب يتطاير في الهواء، وأزهار الرُّمان يبست، والنساء قابعات في الداخل في الغرف التي لا تصل إليها الشمس. الجو يعبق برائحة الصابون والزيت. طبعاً، فبنتهم سوف تختن. وتنطوي المدينة شيئاً

فشيئاً على نفسها في ساحة ضيِّقة، وتتكبكب الأحرف المزخرفة من الكتب المخطوطة. ليست سورة يونس إلتي تبدأ بأحرف ألف لام راء، إنها أحرف أخرى جديدة. لم تعد هناك قوافل جِمال تنقل الملح إلى السوق، ولم تعد هناك حروب. وعجوز يدخل ليلة الدخلة بجسمه المتهالك الذي تفوح منه رائحة العرق وعطر الورد، هكذا فقط. والمساء يحل في الخارج. الأعمدة الزرقاء تكسر حرف الهاء و تهجم هادرة على المتبايعين. يهبط الظَّلام. ظلام دامس كثير الغبار (. . .)

إني في الطائرة، أحلِّق وحيداً بين الغيوم، ناظراً إلى الأمواج المزبدة في الأسفل على عمق عشرة آلاف متر. بعد قليل سوف ينتهي البحر الأبيض المتوسط، وسوف تبدأ سواحل الجزائر، ثم جبال الأطلس، وقمة جرجرة الذي مازالت العواصف الثلجيَّة تعصف في ذراه. والصحراء بتلالها الرَّمليَّة، الصحراء التي تزحف بلا توقف نحو الشِّمال. الشُّبَّان يغرسون الأشجار لإيقاف زحف الصحراء. قرأت ذلك في صحيفة «المجاهد» التي قدَّمتها لي المضيفة قبل قليل. فإن لم يمكن إيقاف زحف الصحراء، فسوف يغطي الرَّمل كافة المدن ووديان الأنهار. إني في الطائرة، أحلق وحيداً بين الغيوم. كانت الصحراء بياضاً بالنسبة لي في البداية، ثم تحولت إلى خيالات، إلى رسوم ملوَّنة خرجت من باطن الكتب، ومن باطن تاريخ العرب. الصحراء في أيام الضِّيق كانت تعني لي بشكل ما،

غياب محبوبتي، وبعد جسدها المبلَّل الذي لم أعتده عني. وهكذا راحت تحرق الجرح الذي بدأ يندمل من الداخل، لكنَّه لم يبنِ قشرة بعد. كما قلت، إنني وحيد في فراش الختان، ويداي تتصبَّبان عرقاً وهكذا خلطت الألوان ببعضها. خضرة الغابة غطَّت سطح أفريقيا بأكمله. ولم يبق مكان في الدُّنيا لصفرة أمِّي. أما الآن فإنِّي لا أتحرَّق في الطائرة التي تقلُّني إلى ركن أصفر من الأطلس. مخيِّلتي فارغة تماماً. أفكر في الصحراء التي جعلتُ الغابةَ تخنقها في «الأطلس الملوَّن» وفي أنني سوف أراها بعد سنوات الآن مجدَّداً بحقيقتها وصفاتها وسماتها. لأنني بعد أن أمكث بضعة أيام في مدينة الجزائر، سوف أذهب إلى الجنوب، إلى الصحراء. وعندها، حين أصل إلى الصحراء الحقيقيَّة، سوف ينهدم عالم كبير مبني على تخيُّلات، وسوف تذوب وتتلاشى كومة أحلامٍ، وتتبعثر ذكريات، لذلك كتبت على عجل «إني في الطائرة أحلِّق وحيداً بين الغيوم» وهي الأسطر التي قرأتموها في الأعلى، قائلاً لوهلة: إن كل ما أنقذه من الضياع مكسب. وأعود إلى الخيال الأول الذي يتجسَّد في مخيَّلتي كخليط ألوان.

ربما كانت مقارنتي الجزائر بالصحراء غير دقيقة، لأن الجزائر بلاد جبليَّة وماطرة. من أين أعرف؟ من الكتب. فماذا يمكن أن يفكِّر المرء ببلاد لم يرها، بل عرفها من خلال الكتب ومن أخبار الإذاعات والصُّحف؟ وهل يمكن لحياة المعرفة أن تحلَّ محلَّ العين

المتبصِّرة؟ قرأت كثيراً عن الجزائر، من كتب تاريخ وعلم اجتماع، وحتى من كتب إسلامية. وكان بينها أعمال أدبية، كروايات وأشعار مولود معمر وكاتب ياسين، ورشيد بوجره، كما سمعت أغاني طاوس عمروش البربرية. وكان لي أصدقاء جزائريون في جامعة السُّوربون. لكن الجزائر في هذه اللحظة التي أجلس فيها على مقعد الطائرة، ليست ذكريات صداقات، ولا خيالات بقيت من قراءة الكتب وسماع الأغاني، كما أنها ليست تلك الخارطة السَّيِّئة في كتاب جغرافيا المرحلة المتوسطة. الجزائر بالنسبة لي صوت. قد تكون تمثال بربروس المنتصب في ساحة بشيك طاش أيضاً لكنها الآن مجرد صوت. كانت أمي، عندما يكون لدينا سمك في البيت عند المساء، تغلق باب المطبخ، وتحمل فرن الغاز إلى الشرفة، وكنت أحمل المنصب خلفها. وكنا نستمع معاً إلى «جزّ» السمكات التي تقلى في المقلاة، ونستقبل المساء الهابط علينا من بين الزيت والدُّخان، في الشرفة. لم أكن أذهب إلى المدرسة حينها. وقبل أن يتقوَّس حرف «ج» على بياض الورقة. وقبل أن يأخذ شكله كما يأخذه دوماً، كان بالنسبة لي صوتاً أسمعه صادراً عن مقلاة السمك. وحرف «ز» أيضاً، حرف «ز» يتكاثر باستمرار، ويطول في «جزّ» زيت مشبع برائحة السمك. الآن، في الطائرة التي تقلّني إلى الجزائر ليست هناك شرفة - بيتنا المتطرِّف - الصغيرة، ولا سمكات كبيرة

تقلى في المقلاة. لكنني مع سماعي نداءات حرف «ج» و «ز» كنت كأنني أشمُّ رائحة تلك السَّمكات الجميلة.

انتبهت إلى صوت المضيفة وهي تقول «إننا نقترب من الجزائر. اربطوا الأحزمة!». لقد بلعت الأحرف الصوتيَّة ورقَّقت حرفي «ج» و «ز» أكثر مما نقول عنه ترقيق في لغتنا التركيَّة. كانت ناعمة الصوت، ترتدي ثياباً حمراء، وعلى رأسها قبعة مثلثة. وعندما كرَّرت الجملة بالفرنسية لمن لا يعرف اللغة العربيَّة، ذابت الأحرف في فمها الكبير المصبوغ، وفي اللحظة نفسها لاحظت سنها الأمامي المغطّى بالذهب، وهو ذا سحر الكلمة! ظلام مفتوح في فراغ فم، ومنارة تضيء وتنطفئ على جانب مياه عميقة. وينكشف تاريخ الكلمة السِّري للحظة، ثم يعود وينطوي على وحدته من جديد. وأثناء هبوط الطائرة في الجزائر، فقدتُ دفعة واحدة كل خيالات المساحات البيضاء والصحراء في «الأطلس الملون». أما جزائري الجميلة المكوَّنة من أحرف لا صوتيَّة، فقد بقيت في الصَّحن وحيدة كحسك سمكة مأكولة اللحم.

١٩٧٨

تمت الترجمة في حلب

مساء الخميس ١٢/١٠/٢٠٠٦

١٩ رمضان ١٤٢٧

القَصَبَة

لا أعرف أين تختبئ عصافير الشارع العريض المشجَّر الذي يقسم المدينة إلى قسمين. زقزقاتها تصل إلى غرفتي، ولكن كيف تتحمَّل العصافير هذه الحرارة، كيف لا تهوي على الإسفلت الحار!... في الأسفل شارع خاوٍ، وجدران ونخيل. الجزائر مدينة بيضاء – زرقاء، أما الحرُّ فلا يطاق. أُغلق شباك النوافذ واستلقي بجسمي العاري على الفراش، والمروحة فوقي تدور بلا توقف. كنت، قبل أن تُدخليني عند الصباح، جالسة على كرسي من حصير، مفرجة ما بين ساقيك، مرتدية رداء نوم أبيض، مثبتة عينيك على لوحة على الجدار، شاردة في الأمواج المزبدة. كانت سفينةٌ مطعمَّةُ المقدِّمة بالفضَّة، نفخت الرياح أشرعتها، تتخطَّى الأمواج، والدلافين تلمع سريعة. هل تعرَّفت في ضوء الفجر على اوديسوس المكبَّل إلى سارية الشِّراع، أم كانت عيناك المخمورتان تبحثان في البعيد عن بحَّار آخر رحل ولم يعد؟ والمجاذيف تشقُّ وتكسر الجليد المترامي الجنبات

وتغطس مرّة وتعلو أخرى. وفي وجه اوديسوس المكبّل إلى السّارية دعوة للحب. جلسنا صامتَين طويلاً، والسّماء في الخارج تغطي أبنية باريس. وعلى الضّوء الرّمادي المتسلل من النافذة رأيت الفراش المبعثر، ورأيت الأزاهير الرمادية المتفتّحة في رداء نومك. وكما تفعلين صبيحة كل سفرة أسافرها بدونك، كنت ستعودين أيضاً إلى فراشك، بعد أن تدخليني من الباب بانفعال. وتستلقين منبطحة فوق الملاءات، التي بعثرناها ونحن نمارس الحب ليلاً ثم مزّقناها في لحظة النشوة، وتنامين نوماً عميقاً جداً.

المروحة تدور بلا توقُّف فوق رأسي. كان يجب أن أعرف أن هذا الفندق القديم المتبقي من عهود الاحتلال غير مجهّز بوسائل التكييف. لكن البناء الذي أعجبني شكله، بنوافذه العالية ذات الشّباك الزرقاء، جذب انتباهي منذ النظرة الأولى. إضافة إلى أنه كان قريباً جداً من القصبة. فندق ساكن، بحاله، بلا بوابين يحرسونه بزيّهم الموّحد، وبلا نزلاء من أثرياء العرب مع أسرهم الكبيرة يتراكضون من غرفة إلى أخرى، بلا صالات وبلا حوض سباحة.

إني أتعرّق في الفراش بلا توقف. فقد بدأت قبل مجيئي موجة حرٍّ لم تشاهد من قبل، ولا يُعرف كم ستستمر؛ أخبرتني بذلك قبل قليل المرأة التي حضرت لترتيب غرفتي، وعندما علمت بأنني أود الذهاب إلى الجنوب بعد أن أمكث هنا بضعة أيام أتجوّل خلالها في

المدينة ، قالت «لا تنتظر أبداً ، فالجنوب أبرد من هنا ، وخاصة لياليه ، تنام مرتاحاً على الأقل» . ثم و كأنها تذكرت فجأة شيئاً ما كانت قد نسيته ، خرجت وغادرت الغرفة . ولم تكن قد مضت خمس دقائق حين عادت تحمل بيدها صينية من الفضة ، عليها ابريق شاي يتصاعد منه البخار ، وكاسات طويلة مزخرفة ، وقالت مبتسمة «أحضرت شاياً ، اشرب منه ولو جرعة ، يقطع العطش» . وبلمحة عبقت الغرفة برائحة الشاي الأخضر الذي سُكب في الكأس . كانت رائحة رائعة لم أشمها مطلقاً سابقاً . وعندما لاحظت ترددي كرَّرت قولها «إشرب ، إنه شاي غير معروف هنا ، أحضرته من جزيرة جربا» . تناولت شاكراً الكأس الذي قدَّمته لي كان شيئاً فاخراً ذا رائحة نفَّاذه . شربته و طلبت كأساً ثانياً . فردَّت علي بقسوة غير متوقعة من صوتها الأجش ، «لكم أنت طمَّاع . لم أخدم الغرف الأخرى بعد ، إرضَ بحصتك هذا اليوم» . و ما أن خرجت المرأة من الغرفة حتى داهمني تعرُّق شديد . وقبل أن أخلع ثيابي وأستلقي على الفراش أغلقتُ شِباك النوافذ .

صحيح ، يجب أن لا أطيل المكوث في هذه المدينة وأن أتوجَّه إلى الجنوب ، إلى الصحراء اللطيفة ، ذات النجوم ، إلى الواحات التي تحطُّ فيها قوافل الجِمال . فالحرارة هناك ليست لزجة هكذا ، وليست خانقة إلى هذا الحد . فالجو يبرد هناك فور غياب الشمس . وتتشقَّق التربة تحت ضوء القمر . من أين خطر ببالي أن

أزور مدينة الجزائر وأن أتجوَّل فيها قبل ثلاثة أيام من انعقاد مؤتمر الكتَّاب في جردايا! ففي هذه الحرارة لا يمكن حتى التَّحرك في الفراش، لا الخروج إلى الشوارع والأزقة. غداً باكراً سوف أغادر الفندق، وفور وصولي إلى جردايا سوف أرسل لكِ بطاقة بريديَّة. بطاقة المئذنة اللَّبْنِيَّة التي ترتفع في السماء من بين البيوت المبنيَّة على سفح التَّلة، ومن بين الأزقَّة الترابيَّة. وأثناء تجوالي في السُّوق في اليوم التالي، سوف يمرُّ بجانبي رجال تفوح روائح عرقهم، ونساء بحجابات بيضاء، وسوف أفكِّر بك وسط الزِّحام. بانفعالاتك وبانكساراتك التي لا تنفد ولا تنتهي، بجسدك الذي لم يعد يجذبني إلى داخله. المسير ليلاً على طول الجدران الصَّمَّاء والأرصفة التي لا ظلال لها يفضي فجأة إلى فضاء. وتضاء الأضواء في البيوت ذوات الأسطحة الترابية، وفي فناءاتها الداخلية. أجل هذا ما لابدَّ أن يحدث في هذه المدينة الواحة التي سكنها واستقرَّ فيها الخارجيُّون مع قوافل جِمالهم التي تحمل الملح والأقمشة. لأنني قرأت ذلك في إحدى روايات رشيد بوجره، ورأيت ذلك في فيلم الأخضر حامينا الأخير. مدن الجنوب بلا أشجار، ولياليها باردة، والهيجان هو الذي يُتعب ويحرق الناس لا الشمس، فالكل ما عدا الأطفال الذين يلعبون بأكوام القمامة، وحتى الذباب متعب. وحدها مئذنة جردايا اللِّبنيَّة تنتصب قوية صلبة تتحدَّى العالم.

يا للغرابة! إني أفكِّر بالهرب إلى الصحراء لأبترد فيها من شدَّة ضيقي بالحرِّ في غرفة عالية السَّقف في فندق بالجزائر. اعتدت عدم وجودك مع أننا كنا سوية هذا الصباح. وقبل قليل جاءني صوتك من باريس، ناعماً قريباً، مجتازاً المدن والجبال والوديان، عابراً أعماق البحر المتوسط، وعثر علي هنا في غرفة هذا الفندق الواقع في أقصى شارع عريض يذوب أسفلته تحت أشعة الشمس، ولفَّ جسمي كله داخل الملاءات المبللة بعرقي. شعرت بالارتخاء والراحة وكأنني أفقت من حمى نارِّيه. سوف أرتاح إذا نهضت الآن وأخذت حماماً بارداً، معتمداً على صوتك الذي يتردَّد بداخلي. لكن ليست لدي القدرة على النهوض من الفراش. أنحاء جسمي كلها مكسَّرة، وذاكرتي تخلو بالتدريج. فالذكريات والخيالات كانت تبتعد أيضاً مع العرق الذي يطرحه جسمي بلا توقف. وأنزلق فوق الملاءات المبللة وتبقى في المؤخرة ظلال شفافة باهتة. كأنني لم أعش حتى هذا اليوم. كأنني لست أنا من يتكلم ويضحك ويبكي. كأنني لم أعرف امرأة في حياتي، كأنني لم أصل إلى النشوة معك، كأننا لم نتجول معاً في الشوارع المضاءة، ولم نعبر معاً الجسور الفولاذيَّة في المدن المزدحمة. ولم يزعج أحدنا الآخر، ولم نتشاجر، ولم نتحابب. كأن المتحابِّين بلهفة، والمتعاركَين أثناء فعل الحب كانا آخرَين غيرنا، والكتب التي قرأناها لم نقرأها نحن في الواقع. ولم نكن في الأحلام التي حلمنا بها. ولم نكن معاً في الغرف التي كنا

فيها. ولسنا نحن اللَّذَين كتبنا الرسائل التي كتبناها. كأننا لسنا نحن اللَّذَين قاسينا المرَّ، وتمنينا الموت، وتذكّرنا الذكريات. بقي العالم خارج هذه الغرفة ذات السَّقف المرتفع، التي أغلقتُ شباك نوافذها الزرقاء، مضت الأيام، ونُثر رمادها في البحر. الشكرَ أنَّه نثر كله في البحر. لا شيء في عقلي غير المروحة التي تدور فوق رأسي، وهي لا تمنح البرودة، ولا تنفك تدور بأجنحتها العريضة فوق رأسي، فوق رأسي.

خرجوا من بطون الطائرات المروحية الضخمة، وملؤوا الساحة في لحظة، واتخذوا وضعية القتال تحت الريح التي تثيرها أجنحة المروحيات الفولاذية. طوَّقوا القَصَبَةَ ببندقياتهم الرشَّاشة، وأشرطة ذخائرهم، وطلقاتهم، وقنابلهم اليدويَّة، وحَرباتهم. كانوا خائفين. يخافون من تفتح زهرة على غصن شجرة. يخافون من وحدتهم، يخافون من كل شيء. سيفتحون النار فور سماعهم أدنى حركة، حتى لو رفرف عصفور من إحدى حُفَر الأسوار المهدَّمة. كانت أصابعهم ملتصقة على الزِّنادات بشكل. أسوار القَصَبَة، الأزقَّة الضَّيِّقة خلف الأسوار، ودكاكين الأزقة، وأولياؤها وبيوتُها وغرفُها والناس في غرفها، وقططُها، ومصطباتُها التي تجفَّف عليها الفليفلة، انكمشت كلها وهي تنتظر، كقنفذ انطوى على نفسه، وأخفى قوَّته عن العدو كلما ازداد انطواء. صدر الأمر من الشاطئ الآخر للبحر: «فتِّشوا حتى جحور الفئران في كل بيت! وإذا اعترض أحد اضربوه،

إكسروه، اقتلوه». دلفوا إلى الأزقَّة وهجموا بأحذيتهم العسكريَّة على الحشرات، والعصافير، والأطفال، وترامت ظلال أسلحتهم على مياه الحنفيَّات العامَّة. كانت الأبواب الخشبيَّة، والنوافذ ذوات الأقفاص الحديدية مغلقة. ركلوا وكسروا الأبواب، وأطلقوا الرَّصاص على النوافذ. وداهموا الأقبية وغرف المؤونة، ودخلوا مخادع العرسان، وفتَّشوا تفتيشاً دقيقاً، فتحوا الصَّناديق والخزانات والعلب، وداسوا على سجاجيد الصَّلاة، وخرجوا إلى المصاطب، وفحصوا داخل المداخن والأفران. ثم دخلوا بين الملاءات المغسولة. وفتَّشوا السَّاحات الداخليَّة، والتوابيت في أضرحة الأولياء، وبحثوا في صناديق الخشب الفارغة واحداً واحداً. قلبوا كل بيت، وكل منزل رأساً على عقب. صفُّوا النِّساء ذوات الملاءات والمسنِّين ذوي اللِّحى البيضاء أمام الجدران. ضمَّت امرأة أولادها إلى صدرها، ولعنت أخرى الزمن، وفيما كان العجائز يسبِّحون اللّه ويبتهلون إليه، صاح واحد منهم بلهجته الجزائرية «يوم التحرير قريب، ليكن الله في عونكم!» تردَّدت أصداء صوته في الآبار التي نضبت مياهها. طرحوا أرضاً امرأة صاحت «لا تيأسوا يا أسودي!» وفيما كانت تتلوَّى على الأرض فُتحت النَّار على الجنود. اضطرب الجو في لمحة، واستمرَّ تبادل إطلاق النَّار حتى مغيب الشَّمس. اصطبغت القصبة بالدِّماء، وبَهُتت ألوان سجَّاد الجدران والبُسُط وسجَّادات الصَّلاة. وقبيل المساء ساقوا أمامهم مئات الشُّبَّان إلى السَّاحة حيث تنتظر طائرات الهيليكوبتر. كان معظمهم شبَّاناً سُمر الوجوه طالت

لحاهم، يمشون برؤوس مرفوعة وأيديهم مقيَّدة خلف ظهورهم، وفي عيونهم يلمع بريق إيمانهم وثقتهم بالنصر والتحرير. إنهم المقاتلون الذين تُنظم المرثيات لاستشهادهم. والتراب الذي يدوسونه تراب وطنهم. أُصعدوا إلى طائرات الهيليكوبتر تحت الريح التي تثيرها المراوح الفولاذيَّة. خسرت القصبة المعركة، لكنَّها لم تستسلم للمستعمر، فالأضواء مازالت مضاءة في غرفها، ويد السَّيِّدة فاطمة الزهراء تحمي البيوت من عيون الحسَّاد، والبُراق مجنَّح يطير فوق الكعبة. وبَسملة بالخط الكوفي تمتد و تطول على طول جدار ملطَّخ بلطخ الدم. البيوت مبعثرة، والباحات ساكنة، أما السلاح الذي أدلي في الآبار فلم يتبلَّل. المعارف الخفيَّة كلها في أجزاء القرآن، وفي حبَّات السُّبحات. وستبقى القصبة صامدة تقاوم حتى التحرير. طارت طائرات الهيليكوبتر وابتعدت في السماء كما جاءت. اتجهت باتجاه البحر وغابت عن الأنظار.

مازالت المروحة بأجنحتها العريضة الكبيرة كأجنحة طائرة هيليكوبتر، تدور فوق رأسي. لكنها لم تكن تبعث ولو قليلاً من البرودة. إني أتعرَّق في الفراش. كان الفيلم قد بدأ بهبوط طائرات الهيليكوبتر في الساحة. شاهدته في صالة سينماتيك في استانبول قبل سنوات، وانتهى بالقاء ثوار التحرير من طائرات الهيليكوبتر إلى البحر وأيديهم مقيَّدة خلف ظهورهم. أولئك ابتلعهم البحر، وأكلت الأسماك أجسادهم الفتيَّة. إذن فأنا لم أفقد ذاكرتي تماماً.

فأنا أتذكر معركة القصبة ، وأتذكر اعتقال المظليين الفرنسيين لثوار جبهة التحرير الوطني الجزائري ، وأخذهم معهم . مع أنني كنت في الثالثة من عمري عندما بدأت حرب التحرير الجزائرية ، وكنت في الحادية عشرة عندما انتهت . وهذا يعني أنني تعرَّفت على حرب التحرير بعد إعلان استقلال الجزائر ، كما تعرَّفت بعد الحرب على الوجه الآخر لفرنسا الذي لم أعرفه حتى ذلك اليوم . وما ارتكبته من احتلال و مظالم و فظائع . وعرفت الجنرال ماسو بشاربيه اللذين يذكِّران بشاربي هتلر ، والدَّماء التي سفكتها منظَّمة O.A.S بلا طائل . والآن وبعد سنوات ، أريد التَّجوُّل في القصبة لكي أحيي ذكرى جراح معارك القصبة التي لم تندمل بعد ، وآلامها التي لا تزال تعانيها . آملاً في أن تنفتح جراحي أنا أيضاً ، وأن تثقب رصاصة قلبي وأنا أتجوَّل في الأزقة الضَّيِّقة . أو أن تحرق أنفي روائح التَّوابل . أريد أن أدخل إلى دكاكين الحدَّادين ، والبقَّالين ، والعطَّارين ، ومنجِّدي اللحُف ، وأخرج منها ، وأن أمشي بمحاذاة الجدران المحفَّرة وأتسلَّق صاعداً إلى القلعة ، وأن تستقبلني هناك نساء بيت قديم أسند ظهره إلى جدار القلعة بأيديهن المخضَّبة بالحنَّاء ، وأن يضمدن جراحي بعد أن أدخل و أستلقي على الأريكة ، وأن يقدِّمن لي الشاي ، ويقفن أمامي باحترام . وأن أنساك صبيحة ليلة أقضيها بين أجسادهن البضَّة الناعمة الخارجة من الحمَّام ، فيما الضوء يتجوَّل بين الجمال والوعول ذوات القرون المتشعَّبة ، وغزلان الصحراء ، المرسومة على سجادة

الحائط، وأنسى الضائقة التي عشناها معاً، وغرفتنا الصغيرة تحت سماء باريس، وأنسى كل شيء، كل شيء في لمحة. لكن الآلام لا تنسى، وكذلك لحظات السّعادة، والفراق. الحرب لا تُنسى، لا التي تقع بين المرأة والرجل، ولا مقاومة شعب بأكمله. الحرب أيضاً مثل الافتتان والجراح لا تنسى.

متى سأخرج من هذه الغرفة؟ متى سأتجوّل بين أزقّة القصبة الحجريّة الباقية من العصور الوسطى؟ هل سأصعد إلى القلعة مارًّاً بين الأولاد الحفاة برؤوسهم الحليقة، والنساء بخمرهنّ، والرّجال السُّمر بجلابيبهم. أم سأنزل إلى الميناء الذي كانت تلجأ إليه سفن القراصنة قديماً؟ أم سأمشي وحيداً بين أضرحة الأولياء ذات الأضواء الخافتة ماراً أمام أحجارها و أنا أكلّم نفسي؟ متى ستنتهي هذه الأسفار، وغرف الفنادق، وهذه الوحدة؟ متى، متى ستتوقف هذه المروحة التي فوق رأسي؟ «ينتهي العمر والطريق لا ينتهي» عبارة مكتوبة على واجهات الشاحنات وعلى جنبات السفن والقطارات، قرأتها: «ينتهي العمر والطريق لا ينتهي». ربما سأموت بكياني المبعد خارج حدود الدنيا، في غرفة الفندق هذه. بعيداً عنك، وعن المدينة التي عشنا فيها وعن ساحة الحرب.

إني أرى انفراج الباب ودخول المرأة مرتِّبة الغرف وبيدها صينية من الفضّة. عليّ أن أنهض من الفراش، لكنني لا أستطيع التّحرُّك بشكل من الأشكال. بل ليست لدّي القدرة حتى على سحب الملاءة

فوقي. تلمع عيناها ببريق غريب عندما ترى جسمي العاري، وتقول: «جلتُ على الغرف كلها، لم يطلب أحد شايي، بقي كله لك، إن أردتَ طبعاً» ودون أن تنتظر ردِّي تملأ الكأس حتى حافَّته وتقدِّمه لي، فأرشفه دفعة واحدة، ليس ساخناً كما كان قبل قليل، لكنَّه حلو كالعسل. ويغمر كياني كلَّه إحساس جميل بالدفء. وبعد أن تضع كأس الشاي على الصينية، تجلس مرتِّبة الغرف عند رأسي وتبدأ بمداعبة وجهي بيديها الناعمتين البيضاوين من كثرة الاغتسال في الحمَّام. وتجول أصابعها في جبيني المتعرِّق وشعري المبلل. كيف لم أنتبه قبلاً لجمالها! كيف لم تلفت عيناها الخضراوان وجبينها العريض انتباهي منذ النظرة الأولى! أترك جسمي لنسيان أعمق من ذي قبل. وعندما تلصق فمها الأحمر الكبير بفمي، تتوقَّف المروحة، وتلفح جسمي برودة لطيفة. وفيما هي تفرِّج ما بين فخذيها وتميل علي بجسمها، تهمس في أذني: «من يشرب من شاي جربا الأخضر الشبيه بالعسل، يغيب عن نفسه، ولا يريد العودة إلى السَّفينة مرة أخرى».

١٩٧٧/١٩٨٤

تمت الترجمة في حلب

مساء الأربعاء ١/١١/٢٠٠٦

٩ شوَّال ١٤٢٧

ساحة الأرواح الميتة

مراكش مدينة واحة في جنوب المغرب، تمتد وتنتشر على سفوح جبال أطلس التي تكلل ذراها الثلوج، وتتسع وتكبر أكثر كلما انتشرت يا حبيبتي. إنها مدينة مبنيَّة على منبسط تحط فيها القوافل التي تحمل الذهب والملح من أفريقيا إلى البحر الأبيض المتوسِّط، بجمالها المتعبة المحمَّلة بالأثقال. و«برجالها الزُّرق» ذوي الوجوه المحروقة، أي البدو الرُّحَّل الذين يعيشون في الصحراء الغربية. ومئذنة جامع الكتبيَّة التي تعلو في وجه السماء بين بيوت المدينة ذات الجدران الحمراء، وأشجار النَّخيل، تذكِّر بانتشار واستقرار الإسلام في مراكش منذ القرن ١٢ وحتى اليوم. جامع الكتبيَّة قديم وجميل بناه الموحِّدون ذوو الأصول البربرية القادمون من الجنوب. ويقال بأنه كان محاطاً بدكاكين الكتبيين. أما الآن، فالأولاد يلعبون الكرة في الفضاءات التي بين الدكاكين. أمضيت أيامي في مراكش في ساحة

تقع في مدخل المدينة القديمة، كان يُعدم فيها المحكومون بالإعدام في الأزمنة السابقة، تدعى «جماع الفَنا» أي ساحة الأرواح الميتة.

هذه السَّاحة تشكل الآن مسرحاً لمأساة الفتنة والبهجة المخلة بالعقل، لم أرَ مثيلاً لها في أي بلد، وفي أي مدينة، ولم أقرأ عن شبيهتها حتى في روايات المغامرات. وأقول المأساة لأن وجوه الناس الذين تغص بهم ساحة الأرواح الميتة، تذكِّر بأفلام الرعب المكوَّنة من خليط عجيب من الفقر والسِّحر والواقع المرير والخيال.

تخيِّلي ساحة تحت رعاية جمهورية العميان ومملكة المتسوِّلين. فبالعو الثعابين وقالعو الأسنان والقرَّاء العميان بأصواتهم المؤثِّرة، وبائعو الأعشاب الشَّافية، والنِّساء المحجَّبات والفتيات الشَّابات، والسَّقَّاؤون والمساكين والعجزة والأطفال - وخاصة الأطفال السُّمر النَّاحلون! - حشود متلاطمة في بحر من الألوان تصرخ وتصيح في كابوس عجيب إلى أن تختلط في مساء صحراء رمادي. إنهم يبلعون الأحرف الصوتية ويتكلمون بصوت عال مضخمين حرف «الهاء». رجل دميم ذو نظرات مريبة ينظم سباقاً لفئران الصحراء. وآخر يعزف على المزمار ويرقِّص ثعباناً. وآخر ذو لحية بيضاء وجلباب أسود بهيئة إمام يروي قصة المعراج على الجموع التي تهلل وتكبِّر. وأستمع كيف سرى محمد من مكة إلى القدس، وكيف عرج من هناك إلى أعلى المقامات. ومغن أعمى أحرقت وجهه أشعَّة

الشّمس، يعزف على كمانه ويترنّم بقصة ليلى والمجنون ونهايتها المحزنة. وبائعو الحساء وبائعو السواقط «رؤوس ومقادم الغنم». وبائعو الكباب، وبائعو السّمن، وبائعو اللبن. . . ثم سوق يباع فيه من الخنجر حتى السِّوار. ومن النعناع حتى الأرز، وكل ما يمكن أن يخطر بالبال. ورؤوس وأسماك مقلية محمَّرة في الضوء الشاحب.

كانت درجة الحرارة ناقصة خمس درجات عندما استقللت الطائرة في باريس. أما في مراكش فهي ثلاثون درجة. كان الأطفال يلاعبون القطط وتنكات الزبالة عندما اجتزت الأسوار ودخلت المدينة القديمة. وفي حواري المدينة الضيقة الملتوية كالأمعاء كان الرجال متعبين، والنساء مخضبات بالحناء، وكدر غريب في نظراتهم جميعاً. يمشون في أزقة مدينة تاريخية قديمة. لكن العجيب أنهم يترنحون ويعرجون بمشي بطيء وكأنهم ليسوا في هذه الدنيا. نظرت من فرجة أحد الأبواب إلى باحة بيت داخلية: بركة ماء، وخزف أزرق، والكعبة على سجادة حائط. وفيما كنت أحاول حلّ لغز هذا العالم الذي ظهر أمامي فجأة، أغلق الباب بسقّاطته وعليها كف فاطمة الزهراء في وجهي. بقيت خارجاً. لم تُظهر لي مراكش المسلمة وجهها الحقيقي، ولم ترني دخائل بيوتها. سرت في حي اليهود، ومررت من أمام شرفات بيوتها المؤلفة من طابقين وخرجتُ إلى ساحة الأرواح الميتة مجدَّداً، وتوجَّهت هذه المرَّة نحو السُّوق.

ما أن مررت من تحت مقنطراته حتى لفحت وجهي برودة لطيفة. مررت من أمام الدكاكين المغسولة، حيث يبيع العجائز الخرز. ورأيت نفسي فجأة أمام المرايا. انقسم وجهي إلى ألف قطعة وقطعة. أين أنا الآن؛ أين يديَّ وعينيَّ، أين نظراتي؟ هل هذه التي تكسَّرت وتناثرت في مرايا هذا السُّوق البارد، والتي تتحول من لون إلى لون، ومن شكل إلى شكل كلما تناثرت، هي صورتي، أم أنها خيال مخيف لغريب لا مكان له ولا وطن؟ خطوط جبيني تحوَّلت إلى وديان سحيقة، ولحيتي صارت، ولا أعرف لماذا، بلون النحاس. فمي وأنفي تبعثرا بلا انتظام مثل سوق اليهود. مَن ضربني، كيف قُطِّعت ونُثرت هكذا! ومتى وقعت كل قطعة من قطعي في أماكن مختلفة!

هناك صورة معلَّقة على حائط غرفتي في زقاق فيغور بباريس، كنا قد التقطناها قبل سنوات في جزيرتك في ايكاريا. لا أدري هل تذكرينها؟ مددنا بساطاً وجلسنا عليه تحت شجرة زيتون. كنت ببياضك الدائم تضحكين؛ نظراتي جامدة قليلاً. كنا شابين، ومازالت أمامنا سنوات. كنا ننظر برغبة إلى عدسة التصوير. أما الزيتونة فكانت يابسة في حرِّ الظهيرة، متجعِّدة متألِّمة، زيتونة معمِّرة جداً، أرسلت جذورها في التراب، في أعماق الأرض. وخلفنا تبدو كنيسة صغيرة ذات جدران بيضاء، كنيسة صغيرة كبيت بقدر الكف. وعند أسفل الجدار عنزات الجزيرة. كان هناك شيء آخر في

الصورة، لا أتذكره الآن. ربما كانت فرحة نظرنا إلى البحر الملون بلون الشراب، الذي سقط فيه ايكاروس، وربما الرغبة الظاهرة في نظراتنا، أي حميميتنا. لم يكن يخطر ببالي أننا سنمارس الحب ذلك اليوم تحت شجرة زيتون في قرية خريسوتومو في جزيرة إيكاريا، وأن جسمي سوف يتجدَّد ويقوى فجأة ويتحرَّر من جاذبية الأرض وأنا بين فخذيك. إذ كنت في داخلك على أية حال، وقد أخذت الأرض مكان الشجرة، وأخذ جسدك مكان الأرض، والعصارة تتدفق من جذور الشجرة إلى جسمك. كنا متداخلين ببعض فوق البساط، وما عدنا نسمع طنين الحشرات الطائرة. لسانك في فمي، ويداك بين كفيَّ، واتحد جسدانا. أحسست لحظتها أن البساط ليس فوق الأرض، وأننا لسنا فوق البساط. لم يكن يخطر ببالي أن جسمي المرتجف بالنَّشوة سيعلو في الفضاء فجأة، ويطير في حر الظهيرة نحو الصخور التي تصفعها الرِّياح.

أذكر أنني أحسست إحساساً مشابهاً لهذا، وكأنَّني تجدَّدت فجأة وطرت في الفضاء، في بيت وضيع ذي سقف منخفض في نهاية زقاق المحل العمومي في كونستانتين. ففيما كنت أتجوَّل في أسواق المدينة المزدحمة التي تتوضَّع مثل عش النَّسر فوق الصخور، أضعت طريقي ووجدت نفسي في أحد الأزقَّة الضَّيقة التي تؤدي إلى هاوية بجانب الجسر المعلَّق. كان الزُّقاق ينحدر انحداراً عمودياً نحو الأسفل حتى عتبة الوادي الصخري الذي يسيل فيه روملي.

مشيت أمام البيوت المصفوفة على الجانبين المطلية بالأصفر والأزرق، ودخلت في أقصى بيت منها إلى غرفة من غرفه المشرفة على الهاوية، ورحت أنتظر المرأة السمراء التي سألتحم بجسدها. كنت عارياً في الفراش، وكانت سماء صافية برّاقة تبدو من النافذة. أذكر كيف دخلت المرأة بهدوء وأدارت ظهرها للنافذة، وراح الزبد يعلو فمها، ثم صعدت فوقي بحيويَّة فرس عربيَّة ذات لبدة طويلة وهي تحمحم، وجذبتني إلى الفراغ العميق بين فخذيها اللذين كنت أقف حيالهما منتصباً وحيداً بعيداً أرتجف خوفاً مثل منارة خارج الزمن.

يومها، جذبتني كبحر هائج إلى أعماقك، إلى فراغ غير مرئي في الصورة التي التقطناها في جزيرتك التي تحمل اسم إيكاروس. ربما لديك أنت أيضاً نسخة من هذه الصورة، فوق فراشك الذي ما عدت تتقاسمينه معي. ما أغرب أن أرضى الآن وبعد سنوات بأن أكون مكان شجرة الزيتون تلك، متجمِّدة متألِّمة في حر الظهيرة، لكنها ترسل جذورها في باطن الأرض، لا تستطيع حراكاً، وأوراقها لا تحفُّها حتى الريح المجنونة، وظلالها تكفي النمل فقط. لم أكن لأعرف يومها أنك ستكونين هائجة كالأمواج التي ترطم الصخور في الأسفل حيث غرق إيكاروس في البحر. واليوم في مراكش تنظرين من خلال المرايا بالانفعال نفسه. لكنك لست في المكان الذي تنظرين إليه، أنت لست في أي مكان. فأنا أعرف أنني فقدتك منذ زمن بعيد.

سرت في سوق المرايا وحيداً، ومررت من أمام الصَّاغة، والبائعين والعطَّارين والخيَّاطين، ووجدت نفسي مرَّة أخرى في ساحة الأرواح الميتة. فالطرق كلها في مراكش تؤدي إلى هذه السَّاحة. في استانبول كذلك كنت أدور وأجول وأخرج إلى تقسيم. وكنت أحياناً في أيام عطل نهاية الأسبوع أصل إلى جادَّة الاستقلال، ثم أسير في تقسيم حول النُّصب التذكاري، وأسير مرَّة أخرى، وحافلات النقل تغدو وتروح، وتنورة طالبة ثانوية تتطاير في الهواء. وقبل أن أعود إلى المدرسة، أدور من خلف صف أشجار السَّرو وأعود أيضاً إلى تقسيم! لم تكوني موجودة حينها. كانت هناك أزقة استانبول الضيِّقة الموحلة، وبحرها الجنوبي، وامرأة غير معروفة الوجه ترتمي في أحضاني في زرقة ضوء المصباح الليلي في مهجع النوم.

جلست في الشرفة العليا في أحد المقاهي. كان الجو يبرد شيئاً فشيئاً. فقد هبطت الشمس نحو جبال أطلس التي تكلل الثلوج ذراها. وفي الأسفل أصوات الجموع المتداخلة تتعالى من جهات السَّاحة الأربع. ماذا يبيعون، من يدري أية خدع وأحابيل يحيكون! إني أسمع صوت المغني الأعمى الذي يعزف الكمان، وقد جلس أسفل أحد الجدران وراح يغني بلا توقف. كان وحيداً، لكن الأرجاء حوله ستزدحم بعد قليل، إذ سيتوافد الناس من الأحياء المتطرفة، ومن خارج الأسوار، ومن محطَّات انطلاق السَّيَّارات وسيتَّخذون أماكنهم ليستمعوا إلى المغني الأعمى وهو يروي الرواية

بلغة لا أفهمها. لأن هذا يحدث كل ليلة عندما آتي وأجلس في هذا المقهى. فإذا ما تربّع المغنّي عند أسفل أحد الجدران الرّماديّة اللون، وبدأ بالعزف على الكمان، تجمّع حوله جمع من الفقراء. فاستمع إليه الرجال المتعبون، والنساء المحجّبات والأطفال، بلا أدنى صوت، رغم ضجيج السّاحة. أولئك لا يهمّهم البيع والشراء، والعربات ذات المحركات التي تحاول فتح طريق لها من بين الجموع. لقد أخذوا نصيبهم من الدنيا فما عادت تهمّهم. إنهم يستمعون إلى المغني الأعمى الذي يحكي حكاية أعرفها، وإن لم أفهم لغته، إذ يقول:

«أحبَّ قيس وليلى أحدهما الآخر منذ كانا طفلين، فلا يمكن أن يكون قيس بلا ليلى، ولا ليلى بدون قيس...»

اليوم أيضاً بدأ بسرد القصة نفسها. وما أجمل صوته! لكأنه احترق بالشّمس ونقيّ بالرمل. إذ لا يأتي صوته من الجدار المقابل، بل يبدو قادماً من الصحراء، أو من منطقة شاسعة واسعة خلف جبال أطلس، جالباً معه أضواء النجوم، حاملاً معه لمعان الرّمال الحارّة.

يقول: «أحبَّت ليلى قيساً منذ النظرة الأولى، وكذلك أحبَّ قيس ليلى».

هكذا هو الحب في الشرق. يغرم الحبيبان أحدهما بالآخر منذ النظرة الأولى، مع أن الإنسان يجب أن يجتاز عقبات كثيرة

لكي يحب. يجب أن يجري اتِّصالات هاتفيَّة، وأن يجتاز سبعة عوالم. وعندما يلتقي بالحبيب يتركه ويذهب. عليه أن يستطيع الذِّهاب. الحب في الشَّرق لا ينتهي، ويحوِّل المحبِّين إلى مجانين مهووسين. أستمع إلى المغني الأعمى وهو يروي الحكاية، ويشتكي من الفراق:

«أولئك أحبَّ أحدهما الآخر، لكن حبَّهما كان قميصاً من نار. إذ لم يُعطوا قيساً ليلى. فجنَّ قيس وهام في البوادي، وانتشر عشقه من لسان للسان».

أرى تجمُّع جمع من الفقراء حول المغنِّي الأعمى في شمس المغيب. الرِّجال يقفون منتصبين داخل جلابيبهم المهترئة. النساء حزينات. الأطفال جلد وعظم. وشابَّة تمسح دموعها بغطاء رأسها ثم تحمل الطفل الذي بجانبها وتضمُّه إلى صدرها بقوة. وأحسُّ باقتراب صوت المغني الأعمى منِّي رويداً رويداً، وكأنه يصدر من أعماق الأرض. وعزف الكمان يرخِّم صوته المحترق لوعة. الطاولة، الفنجان فوق الطاولة، والشَّاي في الفنجان يرتجف:

«هام المجنون في الصحراء بلا ليلى. حدَّث الغزلان في النهار، وناجى النجوم في الليل. كيف كان سيعرف المجنون جنونه لو لم تكن ليلى. زوَّجوا ليلى. وبقي المجنون مجنوناً. وبقيت كلماته في الغزل تتردَّد أصداؤها جميلة في هذه الدُّنيا الكاذبة».

يحلُّ المساء على ساحة الأرواح الميتة يا حبيبتي . وتطول الظلال مع بداية حلول الظلام . ستنار الأضواء بعد قليل ، وستتفرّق الجموع .

«أخذوا المجنون إلى الكعبة كي يشفى . لكن المجنون يريد الانعدام بالعشق ، فيدعو قائلاً: (يا رب دعني مبتلىً بالعشق هكذا ، ولا تشفني منه ولو للحظة) . ولا يقول شيئاً آخر» . أجل سوف ينفضُّ الحشد بعد قليل ، وسوف تضاء الأضواء في البيوت . وسوف يذهب الجميع ، فأظلُّ وحيداً في هذا المقهى . المغنّي الأعمى سيبقى وحيداً كذلك ، لكنه لا ينهي حكايته . لماذا ينهيها؛ وهل أنهي أنا قصتي؟ هل أكسر قلمي لأنه ليس هناك من يقرؤني؟ صوت المغني قريب جداً مني الآن . لكأنه على وشك أن يتكلم من أعماقي ويقول:

«عندما جاءت ليلى إلى الصحراء لترى المجنون ، لم يعرف المجنون ليلى . من هي ليلى ، ومن هو المجنون؟ وما هو العشق ، وما هو الهيام؟ (وصال واحد يجعل العاشق مستغنياً عن الوصل / فما هذا الصدُّ الدائم من المعشوق للعاشق؟)» .

صحيح ، فالعشق قميص ناري . وهكذا أجول بدونك أرجاء العالم . بدونك ، أي هائماً . من مدينة إلى أخرى ، متناثراً من امرأة إلى امرأة غيرها . وكم مرّة تجنحّت ورحت أطير مثل ايكاروس . فقد جسمي ثقله ، وارتفع في الفراغ ، وشدّني السّفر إلى أعماقه

مثل بحر هائج. ماعاد صوت المغني الأعمى يصل إلى مسامعي. إذ تأبَّط كمانه، وغاب عن الأنظار وهو يسيرٍ في الأزقة المعتمة معتمداً على يديه. وتهدأ ساحة الأرواح الميتة. لقد حلَّ المساء في مراكش.

١٩٨٥

تمت الترجمة في حلب

الأحد ١٢/١١/٢٠٠٦

جســـر

إلى المغرمة باللغة التركية

آن ـ ماري توسكان دي بلا نتييه:

عندما فكّر مواطنك ليوناردو دافينشي

بإقامة أول جسر في استانبول، لم تكن

أساسات الجسر الذي يحمل اسمك في

باريس قد وُضعت بعد.

«إنه ماء يجري و يمضي»

من يهمس في أذني بهذه الجملة! إني وحدي بمفردي عند مؤخِّرة المحرِّك، أرى القبطان في مقدمة السفينة (العبَّارة) يغفو. أنا أيضاً يداهمني النعاس، لكني يجب أن أغالبه. منذ عدة أيام

وأنا لا أعرف فيما إذا كنت ألاحق الليل أم النهار. كانت الحرارة في مطار كنيدي بنيويورك، تلتصق التصاقاً. انتظرنا مطوَّلاً في المهبط خلف طائرات البوينغ العملاقة التي تقلع إلى الطرف الآخر من العالم. فوق المحيط ابيَّض النهار، لكن وجه السماء لم يلبث أن تحوَّل إلى زرقة فاتحة، وعندما دخلنا بين الغيوم عدنا إلى الليل ثانية. كان الوقت صباحاً عندما نزلنا في مطار شارل ديغول في باريس. لكنه كان صباحاً معتماً لا علم له ببزوغ الشمس. مررت بسيارة الأجرة في الشوارع المضاءة بمصابيح النيون. أضاءت السَّيَّارات مصابيحها. وعندما دخلنا المدينة دلفنا إلى الأزقة الهادئة. ومن الشوارع المشجَّرة الرَّطبة إلى شاطئ السِّين مباشرة. المراسي والجسور. . . الجسور. والمياه الخضراء المتدفِّقة صافية أحياناً، عكرة أحياناً أخرى. ثم طائرة استانبول تنتظرني في مطار اورلي. يبدو أن الجو قد انكشف قليلاً، ولكن عندما دخلنا بين الغيوم خفَّت زرقة السماء مرة أخرى. مازال شعوري بالتَّخلف الذي شعرته أثناء عبور المحيط قبيل الصَّباح مستمراً. كنت وحيداً في السَّيَّارة، أجلس في الخلف بمفردي. وفي هذه السَّفينة (العبَّارة) التي تقلني إلى اوسكودار أنا وحيد كذلك. وصوت يهمس في أذني بإلحاح جملة حفظتها: «إنه ماء يجري ويمضي». جملة مكتملة بذاتها! لكنها في كل مرَّة تضاف إلى الرأس كجملة ذات دلالات. كان الصَّوت يتكلم بأداء تركي بلغة انكليزية أتكلَّمها بسهولة، وبفرنسية

تصدر حرف الراء من الأنف. أجل مازال الصَّوت يتكلم بلساني الصَّدئ داخل فمي، والملتصق بسقف حلقي من أثر التَّعب أو السَّجائر، مدغماً حرف الراء بإتقان مازال سهلاً. «إنه ماء يجري ويمضي». فعلاً تجري الجمل وتمضي، وكلما تكرَّرت أحرف الراء يجري الماء مسرعاً ويمضي. وفي كل مرَّة تتردَّد فيها الجملة، كانت تضاف إلى الرأس جملة. «الزَّمان» يقول الصَّوت «إنه ماء يجري ويمضي». «العمر» يقول الصَّوت «إنه ماء يجري ويمضي». وأفكر في الزَّمان وفي عمري الذي يجري ويمضي. عمري أي ترحالي. لا أدري لماذا لا تفرغ السّاعة الرَّملية، إنها لا تنفد. ولا أعرف ما إذا كنت أطارد الليل أم النهار! «الخليج» يقول الصَّوت «إنه ماء يجري ويمضي». صحيح. «الخليج ماء يجري ويمضي». وهو ماء لازوردي وعميق، يصبح ارجوانياً عند المغيب، ويميل إلى الزُّرقة عندما تهب الرِّيح وتتبعثر الغيوم. السُّفن تمخر عبابه بصخب، وبواخر السَّفر والسُّفن الشِّراعيَّة والزَّوارق تصعد فيه وتنزل، بألوان الأزهار المنبثقة من داخل أسوار أناضولو حصار. وطيور النورس تغطس في المياه تارة وتعلو أخرى، ويملأ زعيقها أرجاء بيت ساحلي قديم، وتضيء الأنوار المنعكسة من أجنحتها المبللة نقوش السَّقف. ويهيم الخليج مع السُّفن، مخلفاً وراءه الأمواج بزبدها الأبيض. وينفد صبر أمي التي تنتظرني في صالة بيت خشبي. وذكريات المدن التي خلَّفتها ورائي مازالت تجول في خاطري أثناء توجُّهي إلى اوسكودار. ونمرُّ

من بين السُّفن التي أطفأت أضواءها، ومن بين المواعين التي علت جنباتها الطحالب. وإلى الأمام قليلاً على اليمين منارة برج البنت، تضيء مرة وتطفئ أخرى، فيضيء ضوؤها الماء لحظة، ثم يغرق كل شيء في الظلام.

كنت ما أزال تحت تأثير حرارة نيويورك الخانقة عندما امتطيت السَّيَّارة في مطار شارل ديغول. تلك الحرارة التي التصقت بجسمي وحرمتني سهولة التنفس طيلة الصيف. ولكن هل كانت الحرارة هي ما يضايقني، أم إحباطي في غرفتي المطلة على جسر بروكلين؟ لم أكن أستطيع الخروج إلى الشارع ليلاً خوفاً. أضواء مانهاتن تتلألأ على صفحة الماء. وضجيجها تتردَّد أصداؤه على أعمدة الجسر المعلق الفولاذية. وأنا في غرفتي بعيداً عن صخب الطرَّف الآخر، بمفردي مع الأوراق المتناثرة على الطاولة، والتي لم أكن أستطيع كتابة أي شيء عليها. وفي الخارج تتصاعد الأصوات من قلب الليل الحار، فالناس يتكلَّمون لغة لا أفهمها. في النهار أيضاً في المترو تختلط الاسبانيَّة بالصينيِّة، والانكليزية بالايطاليَّة. وسيل متحرك هائل من البشر توافدوا من قارات العالم الخمس وأسَّسوا هذه المدينة العملاقة، يسيلون ويغيبون تحت الأرض. وأتذكر العمال الذين غرقوا أثناء بناء جسر بروكلين. كانوا داخل الأقفاص الفولاذيَّة

المعبَّأة بالهواء، وحيدين في أعماق البحر. لم يخنقهم الماء، وإنما الضغط هو الذي خنقهم. ويرخي الليل علي سدوله بكل ما فيه من ثقل، وأختنق داخل قفصي الفولاذي بدون لغتي التركيَّة.

هذا الصَّباح - يا للغرابة، لقد صغر العالم، وصار السَّفر شيئاً اعتيادياً - فيما كنت أجتاز باريس بالسَّيَّارة من الشمال إلى الجنوب، كنت أحمل نيويورك في داخلي، بناطحات سحابها التي تتساقط عليَّ، ببيوتها المحترقة والمهجورة في هارلم، بأبنيتها المخيفة ذات النوافذ القرميديَّة، بمظاهر الفقر فيها، الحياة في نيويورك شيء يشبه العمل في ظروف ضغط عال. كانت شوارع باريس خالية عند الصَّباح. وحين انعطفنا إلى أحد الشوارع العريضة، لفحت وجهي نسمة باردة لطيفة من خلال نافذة السَّيَّارة المفتوحة. حللت ربطة عنقي وأسندت ظهري إلى المقعد الخلفي اجلس جلسة مريحة. وأحسست للوهلة الأولى أن قميصي لم يلتصق بالمقعد. هي ذي باريس! مررنا من أمام مقاهيها التي لم تُفتح بعد، ومن أمام واجهات محلاَّتها المضاءة. على مدى صيف بطوله لم تُذقني نيويورك طعم الرَّاحة. فخلال عودتي إلى غرفتي ليلاً، بالسيَّارة خوفاً من ركوب المترو، اتكأت علي وسحقت جسمي العاري المتعرِّق في الفراش بناطحات سحابها وسلالمها المحروقة ومضت. كنت أجلس كل يوم تحت أشجار حديقتها المركزيَّة التي لا تمنح

أي برودة. وأسير بمحاذاة الجدران المشحَّرة المرتفعة بجانبي، وأتجوَّل في زحام الأزقَّة التي تقطع الشوارع عمودياً. كما كنت أمرُّ أحياناً بساحاتها الخالية، وبأسواقها التي تذكِّر بمساكن النمل، ويضيق وجه السَّماء فوقي ويضيق. والباعة يصيحون وينادون، وسيارات شيفروليه ودي سوتو وفورد تمر بجانبي مسرعة. سيارات هذه المدينة أيضاً ملوَّنة مثل أناسها، ومثلهم سريعة. ومنبِّهات سيارات الإسعاف وسيارات الشُّرطة لا تعرف التوقف. مصارف وول ستريت باردة، أما سناجب واشنطن سكوير فلم تبق لديها قدرة على القفز. وفي الحي الصِّيني نساء في عمر المئة لا يعرفن الانكليزية مطلقاً. وحين تضاء الأضواء في برودواي، وتضاء في بناية امبايرستريت لكي لا ترتطم الطيور بكشَّافاتها، كنت أقفز إلى سيارة وأعود إلى غرفتي. وتراكمت الأيام فوق بعضها مثل أرقام الشوارع وأرقام السَّيَّارات ومرَّت هكذا. وطوال الصَّيف لم تُذقني نيويورك طعم الراحة. كانت شيئاً لا يصدِّق مثل فم المغنيَّة الزنجية التي استمعت إليها في أحد أقبية جيت فيلاج، التصقت بجسدي مثل ماصٍّ، ومصَّتني وسحبتني إلى أعماقها. لفَّت جوانبي كلها بجسورها الفولاذيَّة، وبشوارعها الطويلة، والطويلة جداً. خنقتني بحبِّها. وبقيت الأوراق فارغة فوق الطاولة.

أنا الآن متجه إلى اوسكودار بالسَّفينة «العبَّارة» . «فيما كنت ذاهباً إلى اوسكودار هطل المطر[1]!» لا مطر هناك ، لكن الليلة لطيفة . أنا مع النجوم في المؤخرة ، ولا يغيب عن ناظري سقوط رأس القبطان على دفة القيادة بين الفينة والأخرى ، ومحاولته جاهداً أن يرفعه ، وإذا ما استمر الحال هكذا فقد نصل إلى قاع الخليج قبل الوصول إلى الطرف الآخر . فقد تشطر باخرة سوفييتيَّة قاصدة بحر مرمرة ، أو أي باخرة أخرى عابرة إلى البحر الأسود ، «العبَّارة» من منتصفها إلى شطرين ، ويصير القبطان في شطر ، وأنا وحقيبتي وتعبي في شطر آخر! ولن يشعر بنا أحد . يخطر ببالي للحظة أن أجتاز إلى المقدِّمة وأحدث القبطان لكي يبقى يقظاً . لكنني مرتاح هنا في ضوء النجوم والتماع الأسماك . أضف إلى أنه ماذا يمكنني أن أقول للقبطان! ففي أذني الجملة نفسها ، وفي رأسي تدور وتجول الجملة نفسها «إنه ماء يجري ويمضي» . لا أجرؤ على محادثة القبطان . فمنذ سنوات لم أكلم أحداً باللغة التركية ، ولم يقل لي أحدهم «إني محترق على أية حال!» أو «يعني ماذا حدث!» أو «لا تبالي يا سيدي!» . وتتثاقل جفوني . ماذا ستكون نهاية هذه المسألة إذا ما غفوت أنا أيضاً! كان يجب عليَّ أن أعبر إلى الطرف الآخر في وضح النهار ، فور هبوطي من الطائرة . لكني فكَّرت بأنني لن أستطيع تحمل انفعالات

---

(١) مطلع أغنية قديمة ومشهورة .

اللقاء الواقعي بحبيبتي استانبول التي لم أرها منذ سنوات ، وكانت تظهر أمامي فجأة ببحرها وأن أنعطف في أحد منعطفات باريس أو وأنا أمشي في أحد أزقتها ، وتتمنّع علي قبل نومي ليلاً في بيتي في زقاق فيغور ، بقبابها الرّصاصيَّة وبمآذنها وبأسوارها وبسفنها فلا هي تسلِّمني نفسها ، ولا هي تدعني وشأني . فانتظرت الليل في مطعم المطار . والآن وأنا في طريقي إلى اوسكودار أغالب النعاس خوفاً من أموت قبل أن أرى البيت الخشبي الذي قضيت فيه طفولتي ، ووجه أمي المستدير الأبيض . ولكن بلا جدوى ، فأجفاني تتثاقل شيئاً فشيئا ، والمياه تجرف مع الجمل مقاومتي وذاكرتي .

مرَّت بجانبنا باخرة مسافرة . اتجهت نحو البحر الأسود بأنوارها التي تتلألأ على سطح المياه المعتمة . ستأخذ طريقها عند الصباح في البحر المفتوح ، ثم ميناء ما ، وأزقة مشمسة ضيِّقة وشوارع مزدحمة . قد تعود وتعبر المضيق ثانية وتتجه نحو البحر الأبيض المتوسط هذه المرَّة . فكرت بأنوارها التي تتلألأ وتسيل فوق المياه المعتمة . أنوار عمياء بلا ذاكرة . ما عادت الجمل التركيَّة تبادر إلى أضواء ليلي . ربما يذرّى رماد فكري هكذا يوماً ما ، وتستيقظ استانبول بدوني .

عندما كنت أعبر بالسيارة صباحاً شوارع باريس التي عشت فيها فترة طويلة ، وصارت جزءاً من ذاكرتي ، لم أشأ أن أعرِّج على البيت ، فقد كنت أحمل بين جنباتي ثقل نيويورك السَّاحق ، وأبنيتها

الصَّاخبة، ورعبها. أما الآن وأنا في «عبَّارة اوسكودار»، ولكي أدفع النعاس في ظلمة الليلة التي التقيت فيها استانبول التي عانيت من الشوق إليها سنوات عديدة، صرت أفكر بباريس، بشوارعها المشجَّرة، بحدائقها، ببهجة ساحاتها المشمسة، ونهر السِّين يجري ويمضي تحت الجسور. والشمس تضرب واجهات نوتردام. شمس صباح غالباً ما التقتني في هذا الفصل في الضفة اليسرى، في شرفة مقهى على ضفاف السين، أو في أزقة جزيرة سانت لويس الضَّيِّقة المتطرِّفة، وشجَّعتني وقوَّت لديَّ إرادة استقبال يوم جديد ببهجة وأمل.

خطر ببالي حين وصلنا إلى ضفاف السِّين، أن أطلب من السائق أن يغيِّر مساره ويوصلني إلى البيت. إذ سيكون من الأفضل أن أكمل طريقي إلى استانبول بعد أن أرتاح يوماً هنا. لكني كنت متعباً في عتمة الصباح. بعد قضاء ليلة نيويوركيَّة خانقة لا نهاية لها، التصقت بجسمي في غرفتي المطلة على جسر بروكلين، وسمَّرتني إلى وحدتي وإلى بياض أوراقي الفارغة. لم تكن لديَّ القدرة على قضاء يوم طويل في بيتي في باريس، في الطابق المقابل لجدران فندق دي سنس الحجريَّة. فقد غادرت بيتي منذ عدَّة أشهر، وفكرت في أن يكون زجاج النوافذ قد اتَّسخ تماماً، وربما علا الغبار المكتبة والستائر والحاجيَّات. وخرجت الصراصير من فتحة المغسلة وراحت تتجوَّل في أرجاء المطبخ. ولابد أن مضخَّة ماء المرحاض مازالت معطلة كما تركتها، وملاءات فرش النوم لم تغسل. ثم ضيق

الغرف، والجدران المتّسخة، ووحدتي. وفواتير الماء والكهرباء والهاتف، والسطح الذي يسيل منه الماء. والصنابير التي تسيل منها المياه. لكن الزمان لا يسيل. «إنه ماء يجري و يمضي». مع أنها ليست بعيدة الأيام التي كنت أخلّف فيها باريس بكل جاذبيتها ومغرياتها ورائي، لأعود بفارغ الصّبر إلى بيتي المكوّن من غرفتين صغيرتين ومطبخ، وأهرع إلى طاولة الكتابة.

حين كنت أمرُّ فوق جسر ماري، كنت أنظر برهة إلى المياه المتدّفقة في الأسفل تحت الزّنّار الحجري. كان النهر يتدفّق بقوة في الشّتاء، جارفاً معه قطع الأغصان والأوراق الميتة، والجمل الغريبة، فأشعر بصفاء ذهني، وأترك الملصقات والكتب التي تزدحم بها باريس، وأترك المناقشات، وردهات السّوربون الضّيقة المعتمة، وأتوجّه إلى أوراقي البيضاء التي تنتظرني في غرفتي. وكان السّين يفيض أحياناً، وتهجم مياهه على الموانئ. كنت أعبر هذا الجسر الذي كانت تصطف على جانبيه دكاكين طابقيّة في وقت ما، ولاعبو الجمباز والألعاب البهلوانيّة يسلّون القادمين للتسوّق منها، والذي لم يكن ليله للقاء العشاق فقط، بل للقاء القتلة وبائعات الهوى أيضاً. أعبر أقدم وأجمل جسور باريس هذا، وأصل إلى زقاق فيغور، فأمشي بمحاذاة جدران فندق دي سنس وأعود إلى بيتي. وما أن أضيء المصباح حتى ترتفع وتعلو الجمل التركيّة في داخلي كما يرتفع وينتفخ نهر بمياه المطر. جسر ماري الذي يربط جزيرة سانت لويس

إلى طرف المدينة الأيمن ، كان يأخذني أنا أيضاً إلى غرفتي وإلى ضوء مصباحي ، فأكتب حتى الصباح . لم تكن تركيتي قد نفدت بعد ، ولم أكن وحيداً هكذا . كان جسر ماري يأخذني إلى أعماق ذاكرتي ، فيربط استانبول إلى غرفتي ، ويربط الجمل بجمل أخرى .

«إنه ماء يجري ويمضي» . من يهمس بهذه الجملة في أذني بلا توقف! وأنا وحيد في العبّارة التي تقلّني إلى اوسكودار ، إلى جانب أمي التي تركتها في صالة بيت خشبي في أناضولو حصار . الصّوت يهمس في أذني بإصرار الجمل التي حفظتها غيباً: «إنه ماء يجري ويمضي» . إنها جملة تامة بنفسها! لكنها في كلّ مرة تضيف إلى الرأس جملة . السّين يقول الصوت «إنه ماء يجري ويمضي» . صحيح ، فالسّين ماء يجري ويمضي ، ثم إنه ماء أخضر بلون الطحالب . هائج في الشتاء ، موحل في الربيع . تخطر فيه سفن التنزّه ، وتضرب أضواؤها البيوت والغرف . المياه تلمع براقة في الليل ، والعربات تروح وتغدو فوق الجسور ، والعشاق يتجولون في الموانئ ، والعجائز ينزّهون كلابهم . والسين يجري ويمضي في سريره منذ ألف عام .

عندما وصلنا إلى ضفة السّين لم أستطع أن أقول للسّائق: «زقاق فيغور رقم٤» . اجتزنا المراسي بسرعة . جسر رويال ، جسر دي آرتس . . . جسور . . . وجسور . جسر نوف ، جسر لويس فيليب ، جسر ماري . لم أر جسر ماري هكذا من الأسفل سابقاً .

لكم كان جميلاً بتناسق زنانيره، وبأعمدته الحجريَّة، وبأضوائه! مررنا بجانبه مسرعين. وعند انعطاف المجرى، قسمنا باريس إلى قسمين. ثم الشَّوارع المشَّجرة مرة أخرى، والأزقة الهادئة، وأخيراً اوتستراد الجنوب. لم أكن أعرف أن طائرة استانبول تقلع باكراً هكذا من مطار اورلي. كنت قد امتطيت الطائرات المقلعة من المطار نفسه إلى مدن أخرى، فذهبت إلى أثينا، وتونس، والجزائر. استانبول فقط لم أذهب إليها. كنت متعباً في السَّيَّارة ونحن نتقدَّم بجوار الجسور على طول نهر السِّين. كانت في مخيِّلتي أعمدة جسر بروكلين الجانبيَّة الفولاذيَّة وانتظام البراغي اللامعقولة التي تربط و تثبِّت هذه الأعمدة. كما كان في ذهني ثقل الليلة النيويوركية التي حلَّت في غرفتي، وضجيج المصانع، والأوراق الفارغة التي تشدُّني. أما هنا الآن في «العبَّارة» مع النجوم فإني أفكر بباريس التي لم تترك بي أي أثر وأنا أعبرها من الشمال إلى الجنوب، باريس المغرورة التي لم تلتصق برقبتي وتلاحقني مثل نيويورك. ويهطل المطر في ساحة فندق دي سَنْس. السَّاحة المحاطة بفتحات الرماية والبرج، والجدران الحجريَّة. انفضَّ رواد صالات السِّينما وتفرَّقوا في هذه الساعة، وخلت المقاهي. لكن الأضواء في المنازل لم تطفأ بعد. وكذلك أضواء جسر ماري. لم أحسن صنعاً بمتابعة السفر دون المرور بالبيت. فمنذ كم نهاراً وليلة خرجت إلى الطريق وبدأت السَّفر! كانت ليلتي الأخيرة في نيويورك. لم تنته أبداً تلك الليلة.

استمرت معي في الطائرة، ثم أثناء اجتيازي باريس بالسَّيَّارة. ومازالت تلتصق بجسدي في استانبول في «عبَّارة اوسكودار»، فتجذبني إلى ظلمتها العميقة وإلى فراغ فمها، إلى فراغ الزنجيَّة التي كانت تغنِّي الجاز في قبو في جيت فيلاج. إذا غفا فسوف نغرق. إذا غفوت أنا أيضاً فسوف نغرق لا محالة، وسوف يجذبنا المضيق إلى أعماقه.

قفزت من مكاني بهزَّة عنيفة، ظننت في البداية أننا ارتطمنا. وإذ بنا قد وصلنا إلى «اوسكودار». قال لي القبطان ضاحكاً «إلى هنا فقط يا أخي!» ما أجمل هذه الـ «إلى هنا فقط يا أخي!» وما أن خطوت في المرسى خطوة نشواناً بتكلمي اللغة التركية حتى رأيت الجسر منتصباً هناك إلى الأمام، متَّجهاً من تلال اورطاكوي نحو بَيلر بَيي، حيث المياه التي تجري من تحته كانت تفصل بين الشَّطرين. ظننت أنني أرى حلماً. كان بأضوائه البرَّاقة مثل حفلة عرس في جوف الليل. فركت عينيَّ ونظرت ثانية. أجل هناك، فوق المضيق الممتد من البحر الأسود إلى بحر مرمرة كان ينتصب جسر كأنه معلق في الهواء. جسر معلق يأخذني إلى نفسي.

١٩٨٤

تمت الترجمة في حلب

مساء السبت ٢٥/١١/٢٠٠٦

عــودة

أشجار الحور على طول الطريق ، والجسر ، وفي أعلى المرتفع زقاق ضيِّق . رأيت في نهايته هرَّة ، قفزت من جدار الحديقة المتهدِّم وتسلَّقت شجرة التوت ومنها إلى العريشة . شاهدت الدُّخان يتصاعد من المدخنة . كان دخاناً رمادياً كثيفاً تذروه الريَّاح . دخلت الهرَّة في الدُّخان وخرجت ، ثم اختفت بين القرميدات . وقفتُ أمام باب الحديقة . سينتهي الطريق إذا دخلت . فجملة «ينتهي العمر ولا ينتهي الطريق» كانت مكتوبة على جدران المدن ، وجدران الفنادق ، وعلى قطعة بيضاء على السفينة ، وعلى واجهات القطارات والطائرات ، وفي غرف الانتظار ، وساعات المحطات وعلى الزجاج الأمامي للشَّاحنات والباصات . أو أن أحدهم همس بهذه الجملة في أذني بصوت مألوف «ينتهي العمر ولا ينتهي الطريق» إذا دخلت فلن يُطرق باب بيتي في زقاق فيغور بباريس مرة ثانية . ولن يرن جرس الهاتف ، ولن تُقرع أجراس كنيسة نوتردام . ولن تتراكم الجمل التركيَّة على ضوء المصباح ليلاً . سينتهي الرَّحيل . إذا دخلت سوف

أراك فوق الأريكة في الصالة. ابيضَّ شعرك، وفي وجهك الأبيض المدوَّر صبر.

ـ عدت إذن.

ـ عدتُ.

ـ ضرب الصقيع الأشجار أثناء غيابك فذبلت وتداعت كلها.

ـ لكن شجرة التوت لم يصبها أي شيء.

ـ تلك أيضاً حالتها تشبه حالتي، إنها على وشك التداعي.

ـ لا، لا، أنت ما شاء الله بحالة جيدة! إني أراك بحالة جيدة.

ـ لقد هرمتُ. إعلم أنه لم تعد لدي قدرة، لتكن هذه سفرتك الأخيرة.

ـ ....

ـ ذهبت مرَّة ولم تعد.

ـ ....

ـ ألم تأخذ نصيبك من الحياة. ألم تشبع من العالم بعد؟

ـ ....

أجل، لتكن هذه الأخيرة، لن أذهب مرة أخرى.

لم أكن أعرف أنك ستبقين وحيدة هكذا ، وأنك ستهرمين بهذا الشكل . هو ذا كل شيء يبلى ويمضي . عندما كنت هنا أيضاً كان الصقيع يضرب الأشجار . وتغطي الحديقة أعشاب وحشائش مختلفة . وتجف مياه الصهريج . أما الآن ، فيا للغرابة . . . كأن الربيع لم يأت . وكأن الأمطار لم تهطل . جفَّ التراب ، والأوراق النحيلة ترتعش ارتعاشاً خفيفاً . كأن الرياح لا تجلب الأمطار ، والمياه لا تسري في الأغصان . يا للغرابة . . . يبدو البيت مهجوراً . أغطية الأرائك لم ترفع . والأريكة الطويلة يعلوها شبر من الغبار . والمصحف المعلق على الجدار لم تمسَّه يد منذ مدة طويلة . حتى ساعة المنبّه التي لا تبعدينها عنك توقّفت . الجدران المتّسخة ، الغرف ، الدَّرج النَّازل إلى الحديقة ، وسكون الفسحة السَّماويَّة . كل شيء ، كل شيء كأنه في حلم زمن قديم . وحدة عميقة رانت على عينيك . كأنك غائبة . كأنك لست موجودة في المكان الذي تجلسين فيه وتنظرين منه إلي . لا تنظرين إلي بمحبَّة . نظراتك التي رفعتها عن النافذة لأول مرَّة منذ سنين ووجَّهتها نحو ابنك نظرات جامدة ، بلا حيويَّة . لو ابتسمت قليلاً فسيعود للجدران بياضها . وستملأ دقَّات السَّاعة أرجاء الصَّالة . وسيزول الغبار فوراً عن المصحف وعن الأريكة الطويلة . وستسري المياه في الأغصان . لكنك لا تبتسمين .

ـ انتظرتك كثيراً طوال نهارات وليال طويلة .

ـ ها قد جئت ، عدت أخيراً .

ـ طالما جئت ، يبدو أنك لست أنت من انتظرته .

إذن لست أنا من انتظرته . صحيح ، فأنت انتظرت غيري . انتظرت الطفل الذي كنت تضعينه على ركبتيك وتهزِّينه تحت شجرة التوت في الحديقة ، والذي كنت تغطِّينه ليلاً وتدعين له وتنفخين دعاءك في الظلام . انتظرت الشاب المبتسم في الصورة المعلقة على جدار غرفة الضيوف . لأنك بقيت وحيدة وإياه في هذا البيت الخشبي . بعد موت أقاربك ، وخاصة بعد موت زوجك . حياتك كانت حياته ، وعالمك كان عبارة عن وجوده . النهار كان يبدأ معه ، والليل ينتهي به . ذاك كان حياتك . لاشك أنك انتظرت الشاب الذي أرسلته يوماً إلى باريس ، وسكبت الماء من مشربيَّة نحاسيَّة خلفه ، والذي بكى بحرقة عندما تركك وذهب ، لا الرجل الملتحي المتعب الذي ظهر أمامك بعد سنوات كأنما خرج من مصباح علاء الدين السِّحري .

لو تعلمين كم قاسى ذلك الرجل من الوحدة ، وكم عانى من الآلام ، متنقلاً من مدينة إلى غيرها ، ومن امرأة إلى أخرى . حياته انقضت في الغرف الضيِّقة ، والأزقة المعتمة . استقلَّ طائرات ضخمة لا تعرفينها ولن تريها حتى في أحلامك ، وعَبَرَ المحيطات وتجوَّل في شوارع مدن صاخبة وفي حدائقها . لكنه لم ينس وجهك الأبيض المدوَّر ، لم ينس قربك . إذ كان يراك في مياه نهر السِّين التي تجري وتمضي تحت جسر ماري ، وفي ضوء المصباح المتساقط على

الأوراق البيضاء في زقاق فيغور في باريس، يرى يديك ووجهك وجبينك العريض. وكنت في عقله عندما كان الثلج يهطل على ساحة بوشكين في موسكو، وعندما كان يستمع إلى أغاني الجاز في أحد الأقبية المعتمة في جيت فيلاج في نيويورك. ولم تستطع أي شمس، حتى شمس البحر الأبيض المتوسط الحارقة، أن تدفئ روحه مثل وجودك. والآن أنت محقَّة بقولك إنك ما كنت تنتظرين هذا الرجل المتعب المجرِّب المنتصب أمامك بعد سنوات. أما هو فقد انتظر دائماً هذه اللحظة، انتظر يوم عودته، إفهمي هذا.

ـ ألم تعرفي ابنك؟ هل الذي تنتظرينه، شخص آخر، ولست أنا؟

ـ ....

ـ ها قد عدت. لتكن هذه آخر سفرة. لا انتهى الطريق إذا ما ذهبت ثانية.

ـ ....

وقفت أمام باب الحديقة. سيُغلَق الباب خلفي بإحكام إن دخلت. وحين أصعد الدرج إلى الصالة ستنتهي باريس. ستنتهي الشوارع المضاءة المزدحمة، والمقاهي، والنساء الجميلات، وكل شيء، كل شيء سينتهي. إذا انتهى فلينته، بل لقد آن منذ زمن بعيد أوان العيش الهادئ معك في هذا البيت الخشبي. حيث نصلح

البيت، ونرتب الحديقة. فتحيا الأرض، وتسري المياه في الأغصان مجدداً، وتخضر الأوراق، أوراق شجرة التوت العريضة التي كنت أغفو تحت ظلها.

فتحت الباب ودخلت إلى الحديقة. لم تكن مهملة جداً كما توقّعت. كل شيء في مكانه السابق: شجرة التوت، والجدار الحجري، والصّهريج غير المستعمل في الزاوية. خفّ توتّري قليلاً، واسترخى جسمي وارتاح عندما شممت رائحة التراب. إنه الوقت المناسب تماماً. يجب أن أصعد الآن إلى الصالة، الآن فوراً. كم سنة مضت. . . كم سنة مضت لم أركِ فيها، ولم أسمع صوتك، كم سنة مضت لم أطأ فيها أرضيَّة الصَّالة الخشبيَّة! هذه الأرضيَّة التي كانت تطقطق تحت قدميك عندما كنت تأتين ليلاً لتغطيني. كنت أسمع البيت يهتز، والجدران والنوافذ ترتجف، وأرى الظلام يتكاثف. وفجأة ما أن تدخلي الغرفة حتى يتوقف كل شيء، فيتباعد الظلام، وتضيء الدنيا بنور وجهك. أعمق وأجمل إغفاءة لم أذق مثلها، كانت بعد أن تدعي لي وتنفخي في الظلام، بل يجب أن أقول لك إنها تلك التي ذقتها على ركبتيك في يوم صيفي تحت ظل شجرة التوت اللطيف، وعلى صخب الصهريج. أما الآن فالمدن التي عشت فيها تصطخب وتضجُّ في داخلي. علي أن أشرح لك كلَّ ما أردت قوله لك، ولم أستطع قوله حتى اليوم بشكل

من الأشكال، ذنبي الأول، عقوبتي الأولى، وكل ما هو أول في حياتي. المدن التي سافرت إليها وشاهدتها، النساء اللواتي تعرَّفت عليهن. وكل شيء، يجب أن أخبرك كل شيء دفعة واحدة.

عندما صعدت إلى الأعلى دون أن أتلكأ طويلاً في الحديقة، وطرقت الباب ساد سكون غريب. انتظرت برهة، وعندما لم أسمع جواباً طرقت ثانية. أيضاً لا صوت. في تلك اللحظة أحسست بحيوان ذي وبر ناعم يتحسَّس كعبَي قدَمَي. نظرت و إذ بها الهرَّة. نزلتْ الدرجات بسرعة وعبرتْ الحديقة من طرفها إلى طرفها الآخر، وقفزتْ من فوق السُّور الحجري وغابتْ. لدى رؤية الهرَّة تذكَّرت الدخان الذي يتصاعد من المدخنة، فطرقت الباب بكل ما أوتيت من قوة هذه المرَّة. حدثت حركة في الداخل، وسمعت طقطقة الأرضيَّة الخشبيَّة. فُتح الباب، ووقفت أمامي امرأة مسنَّة ذات غطاء رأس.

– عمَّن تسأل؟

– . . . . . .

– لا تكن ابن السَّيِّدة نور الحياة!

دخلت إلى الداخل. الأريكة فارغة.

– أنا جارة السَّيِّدة نور الحياة. زوجة حاجي. أنت لم تتلق البرقيَّة التي أبرقناها إليك في باريس إذن . . . أمك، العمر لك . . .

تهالكتُ على الأريكة. الصالة المضاءة، بضوء يتسلَّل من خلال النافذة، والتي انتظرتِني فيها لسنوات، كانت بدونك.

١٩٨٥

تمت الترجمة في حلب

مساء الأحد ٢٦/١١/٢٠٠٦

بـــرج

«سيناريو فيلم صامت قصير»

منظر بعيد لحي مساكن مخالفة، فقير في عتمة الصباح. الضوء يتسلل من نوافذ المساكن العشوائية المتكئة على بعضها. تُسمع موسيقى حزينة ثقيلة تجثم ببطء على صدر الإنسان مثل شوقه إلى مدينة بعيدة. (هذه الموسيقى سوف تستمر طوال الفيلم، مع تغيير في إيقاعها أحياناً)

الأم جالسة على أريكة بجانب النافذة. وجهها غير واضح في عتمة الصباح التي حلّت على الزجاج المغبّش. يسقط على غطاء رأسها ضوء خافت ينبعث من مصباح كاز خلفها. سكون. ثم تملأ الغرفة رويداً رويداً تكات السّاعة. تتجه نظرات المرأة نحو الساعة: ٥,٣٠ (هنا يظهر طفل نائم في فراش على أرض غرفة فقيرة). تنهض من مكانها وتقترب من الطفل النائم. تراقب نومه فترة. يبدو الطفل

كأنه يتابع حلماً جميلاً في نومه. تلوح بين شفتيه ابتسامة خفيفة. وجهه نظيف جداً. المرأة تهز الطفل برفق.

وجه غير واضح - نقي بقدر ملاءات مغسولة نظيفة، وناعم - يتضح الوجه شيئاً فشيئاً. إنه وجه الأم التي كبرت قبل الأوان بمدة طويلة. وجه أبيض لدرجة غير مألوفة. (يجب أن يوقظ في المشاهد الأمل بيوم مشرق مضيء ومحبب). فوق جبينها انكسارات، وفي عينيها يبدو حزن تحاول إخفاءه. وعندما تخفق في الابتسام، يشيع ألم عميق على قسمات وجهها.

نظرات الطفل الناعسة، بلا معنى، متجهة نحو السَّقف أولاً ـ مشقوق، معتم ـ ثم تجول في الغرفة برهة: بساط قديم، جدران رطبة تساقطت لياستها، في الزاوية صندوق، خزانة شعريَّة، كومة الفرش . . . إلخ كل ما يمكن أن يوجد في غرفة فقيرة. تتوقف نظراته على النافذة. عندما يرى الأزرق المبرِّد خارج الزجاج تزول البسمة المرتسمة على شفتيه. يزيح اللحاف عنه وينهض. الشاي يغلي فوق رماد المنقل. يرتدي ثيابه. يشرب وأمه الشاي. نظرات حب متبادل. الطفل يخرج إلى الخارج. الأم تغلق الباب وتسند رأسها إليه. تنظر إلى الغرفة برهة نظرات فارغة. عتمة الصباح المعلَّقة على النافذة من الخارج تظل هكذا دون أن تتغيَّر. نرى يديها عند رأسها. أصابعها متجعدة قاسية نافرة العظام من كثرة غسل الغسيل.

الأم تغسل غسيلاً في حوض واسع . وعلى جانبيها تكوَّمت جبال من الغسيل .

الأم تمسح الواجهات الزجاجية لصالون بيت غني . شعرها المتساقط من تحت غطاء رأسها . جميل غزاه الشَّيب . بيدها خرقة ، مالت على الشارع تمسح الزجاج . المصوِّرة تقترب من أصابعها: الأصابع التي تمسك بإطار الواجهة الزجاجية بصعوبة .

زقاق في عتمة الصباح . الطفل يسير بتمهل . بجوار الجدران المهترئة ومصابيح الشوارع . تمر بجانبه مجموعة من العمال الذاهبين إلى المصنع ، يتمازحون فيما بينهم . الصبي وحيد بمفرده في عالمه . سكون شارع يجعل الإنسان يقشعِّر و يشعر بالغربة . يمر من أمام مقهى يظل مفتوحاً حتى الصَّباح . يضرب وجهه ضوء خافت متسلل من الزجاج ، فيضيء عيني الطفل – الذي لم يشبع من النوم – السَّوداوين الصغيرتين المجفلتين اللتين تذويان رويداً رويداً .

يسير على طول الجدران المتهدمة . صباح يوم سيكون جميلاً . جثمت برودة لطيفة على عتمة الأزقة الضَّيِّقة . أزقة حي المعدمين العشوائية القذرة . . .

ساحة في هدوء الصباح . الطفل يستقل باص النَّقل الشعبي

داخل الباص. المصورة تجول في وجوه الركاب برهة. تجاعيد حزينة خلَّفها النعاس على الوجوه المتعبة. أغلب الرجال غير حليقين. الباص يزدحم تماماً مع الراكبين الجدد. في الخلف يبدو طفل آخر يغفو فوق مقعد ممزَّق. المصوَّرة تقترب من عيني الطفل الناعستين المعمَّشتين.

نرى الطفل نفسه عند رأس آلة ضخمة في المصنع. يتصبَّب عرقاً. وبتأثير نعاس ثقيل لا يُحتمل يُغمَض جفناه قليلاً. فجأة يُطعِم يده للآلة. صرخة مرعبة!

الطفل ينظر من زجاج الباص إلى الخارج. تمر في البداية بيوت خشبية يتسلل الضوء من نوافذها. ثم مقابر. أحجار قبور بيضاء في عتمة الصباح. الباص يسرع شيئاً فشيئاً. تمرُّ جدران مهدمة، وباحات جامع معتمة، تمرُّ مئذنة مسجد متهدمة. ثم الشوارع العريضة. لا أضواء في البنايات. تبدو من النافذة واجهات كبيرة. وتمر بسرعة بنايات عالية وقفت أمامها سيارات خاصة. واجهات مخازن مضيئة. (كما سيُفهم، الفقر سوف يستدعي لدى الطفل ولو دون علمه أطيافاً من عالم ما وراء الطبيعة، ولا بد أن تكون هذه الأطياف متعلقة بمفهوم الظلام في عقله الباطن. أما في الواجهات المضيئة فنرى الدفء وأشياء من عالم مختلف. فالمطرَّزات، وعريُّ العارضات، والدُّمى أطياف يشعر الطفل بغربة نحوها).

يجتاز ساحة بيازيد ماشياً، ويذهب إلى عمله في سوق النحّاسين . (هو أجير مبيِّض) . معلمه فتح الدكان منذ برهة . ينظر إلى وجه السماء قبل أن ينزل إلى الحفرة العميقة التي يعمل فيها .

خلف البرج – برج بيازيد – ضياء ساحر بعيد . (يجب أن تطول اللقطة هنا بحيث تبيِّن أن البرج رمز) . الصباح يحل . ترتسم ابتسامة دافئة على شفتيه . وعندما يمسك معلمه بذراعه ويطلب منه البدء بالعمل ، ينزل الدرج ويغيب في العتمة . (حركاتهم يجب أن تنم عن فتور زائد ، وعن شيء من الانسحاق ناجم عن عدم رؤيتهم الضوء) .

الصباح في المدينة: يكتمل مفهوم الضياء في اللوحات المتعلقة بهذا القسم . ضياء طبيعي كما في الحياة الواقعية . الضوء يجب أن يكون ساكناً ، لكنه يجب أن يظهر العالم المعاش كما هو دون مبالغة . يوم يشبه بقية الأيام ، يظهر كل شيء بلونه الحقيقي . صباح مشمس .

يُفتح الباب في نهاية الممر الطويل المعتم . يدخل ضوء إلى الداخل . يظهر رجل في الضوء .

شوارع ، مشمسة مضيئة .

حركة المدينة المتزايدة باطراد .

الشمس فوق طاولات مقاهي الأرصفة .

أناس يتناولون الإفطار في حديقة نظيفة في فندق باهظ .

غرفة نوم طفل برجوازي. طفل صحيح البنية يغفو في فراش واسع. السّتائر مسدلة. تدخل الخادمة، تسحب الستائر. يسقط ضوء الشمس على وجه الطفل. يفتح عينيه بسرور و يبتسم. على وجهه هدوء إنسان مرتاح أخذ قسطاً كافياً من النوم.

أرضية دكان المبيِّض الرَّمليَّة. حفرتها العميقة. الطفل يعمل. يجهز الصُّحون و القدور وتلة من الأواني النحاسيَّة للتبييض. الظلام يعم الجهات كلها.

بضعة أطفال في عمر الأجير، يحملون حقائبهم على ظهورهم ويتوجهون إلى مدارسهم بفرح.

أطفال أصحَّاء جميلون يلعبون في حوض رمل الحديقة.

نرى تلاميذ المدارس في الساحات المشمسة، وقد اصطفوا أرتالاً بصداريهم السوداء وقباتهم البيضاء، يلعبون لعبة الجري.

يلاحظ من خلال الإضاءة الخافتة القادمة من الخارج، اتساخ وجه الأجير شيئاً فشيئاً، وهو يمسح الأواني النحاسية المكوَّمة أمامه بالأسيد. حبيبات العرق التي تبدأ بالتشكل على جبينه الصغير تدل على حرارة الحفرة. عيناه تبتعدان إلى طرف بين الفينة والأخرى حذراً من الدخان المنبعث من ملامسة الأسيد للنحاس. المصوِّرَّة تجول داخل الحفرة فترة من الزمن: جدران حجرية رطبة. تبدو في

طرف من الظلمة قطعة من السماء الزرقاء، كقطعة مجتزئة من بحر برّاق مرسوم باليد. أمام الزرقة ينتصب برج صغير.

مفهوم الضياء الذي تم العمل حتى الآن على عكس مفهومه بشكل طبيعي وواضح، يفقد واقعيته كلما مرَّ الوقت بموازاة حياة الطفل في الظلام. الضياء يعم أرجاء المدينة كلها. البيوت، والشوارع، والحدائق، والمقاهي على شاطئ البحر. الضياء يرتمي على وجوه الناس. تمر سفن شراعيَّة بأشرعة بيضاء ناصعة. النوارس تحط في البحر، ثم تحلق كلها سوية في الفضاء وتقيس وجه السماء.

(مفهوم الضياء الذي تم العمل على عكسه وتجسيده بشكل طبيعي، يفقد واقعيته مع تقدم الزمن – بموازاة حياة الطفل في الظلام – ويتحول إلى هدف كبير ملهوف عليه بشدة. يجب الانتباه خاصة إلى أن المشاهد غير الطبيعية التي ستشاهد يجب أن لا تستدعي مفاهيم مضادة تعارض فكرة الموضوع).

لآلئ العرق المتجمعة على جبين الأجير تسيل على قميصه. يتوقف عن العمل للحظة وينظر إلى جدران الحفرة المعتمة، التي تستدعي كوابيس مظلمة وأحلاماً وهميَّة مستقرَّة في اللاشعور. عالم الطفل اللاشعوري: لوحات هذا القسم سوف تعكس عالم اللاشعور لدى أجير مبيِّض فقير يرى ضوء الشمس مرة في الأسبوع، وذلك أيام الآحاد، إذا لم تكن السماء ملبدة بالغيوم (ملاحظة: جاذبية هذا

القسم متعلقة بإرادة المخرج. لأنه سوف يظهر عالماً مغايراً لقسم الحلم الذي سيأتي فيما بعد، يمكنه أن يفكر بإضافة بعض الشخصيات).

عالم مضطرب مليء بالخوف. فمثلاً طيف امرأة عجوز.

سَحَرة يحكى عنهم في الحكايات.

خيال رجل طويل جداً متشح بالسواد.

بقع سوداء تقترب بسرعة. فيزول الضياء فوراً.

أزقة مظلمة.

مدخل دهليز يبعث الخوف في نفس المرء. فجأة نرى ذوبان هذا العالم السيئ شيئاً فشيئاً. ووجه الأم يكبر شيئاً فشيئاً في اللحظة نفسها يعم الضياء كافة الأرجاء. وجوه دافئة، مضيئة. عينا الأم الحانية. (الشوق إلى الضياء يجب أن يتوحد بنظرات الأم المشفقة التي أيقظت بها الطفل صباحاً). عندما يبدأ وجه الأم بالابتعاد تغطي وجه السماء أسراب الغربان، والصقور التي تهوي نحو الصخور زاعقة، وطيور بريش أسود، وخفافيش، ومغارة مغطاة بشباك العنكبوت. خيال شجرة يابسة مهترئة. ثم زحام معتمري القبعات السوداء يملأ الشوارع والصالات المظلمة. ومجموعة من الأشياء مما وراء الطبيعة ترمز إلى عالم اللاشعور عند الطفل:

ساحات جوامع .

بيوت بلا أضواء . حجارة قبور في الظلام .

غرفة إشعال الشموع في ضريح أحد الأولياء .

ظلال تتراقص على الجدران . لهيب شمعة مرتجف .

نساء عجائز ذوات أسنان كالفؤوس .

الطفل في الحفرة يعمل . يتوقف عن العمل . ينظر إلى البرج الظاهر في طرف العتمة . يمد يده مبتسماً محاولاً أن يمسكه بأصابعه ، وكأن البرج دمية . يلعب هكذا فترة بجهل من لم يصنع في طفولته دمى أبراج . ثم يعود إلى العمل بوتيرة أسرع .

لقطة قريبة مأخوذة من أسفل البرج ، تظهره عالياً وضخماً بشكل غير معقول .

دكان المبيِّض . صوت الكير يتزايد شيئاً فشيئاً مثل إنسان حي يشهق ويزفر . في الأسفل مظهر بلا شكل للأواني التي حضَّرها الطفل للتبييض .

عمل الطفل . صحن أسيد مطمور في الرَّمل بجانب قدميه . الأواني التي ستعالج بالأسيد متراكمة فوق بعض حتى السَّقف .

تلمع في إحدى زوايا الدكان أغطية قدور مبيَّضة ، أخرجها الأجير الذي يعمل في الحفرة إلى الضياء . بيضاء برَّاقة تكاد تبهر

النظر. الطفل في الظلام في الأسفل. نتيجة جهده المتجسِّد ينعكس في لمعان الأغطية المبيَّضة كرمز للضياء.

شمس ـ لمعان الشمس فقط.

الطفل في ظلام الحفرة. متضايق من الحرارة. يُخرج من جيبه منديلاً وسخاً يمسح به عرقه. ينظر بعينين متعبتين إلى كومة الاواني التي سيحضرها للتبييض: صحون، أغطية قدور، غلايات قهوة نحاسيَّة... الخ متراكمة حتى السَّقف. تبقى هكذا دوماً دون نقصان.

لقطات من مختلف زوايا البرج. ليس برجاً دمية كما يبدو من حيث يعمل الطفل.

كأن الحفرة تزداد عمقاً بالتدريج. الطفل يشعر بأنه ينزل بلا صوت إلى الأعماق. الجدران المبللة على طرفيه تتحرَّك وتعلو. الظلام يزداد. (تناقض البرج مع أعماق الأرض يجب أن يوقظ مشاعر اليأس في المشاهد. تنافر ما بين مظاهر المدنيَّة العصرية ونظام الإقطاع الذي كان سائداً قبل الرأسمالية. البرج الذي كان يبدو رمزاً لحياة غريبة – الطفولة – لم تُعش، يجب أن يجسِّد الآن فكرة العلو).

السماء دائمة الزرقة خلف البرج، تسودُّ تدريجياً. الطفل يخرج من الحفرة ويتلفت حوله. الضياء انسحب وغاب من وجه الأرض. حلَّ المساء. مساء ليلة صيفيَّة بلا غيوم. تطوف على وجهه صفرة شاحبة بلون الليمون. انعكاسات ألوان مختلفة مختلطة ببعض بعد أن غربت الشمس. مغلمه يغلق الدكان.

يسير نحو ساحة بيازيد بخطى متعبة .

مساء في سوق النحاسين .

دكاكين تغلق ، بائع بسطة متجول يجمع أغراضه .

يمر بجانبه بعض الأجراء وهم يتحادثون . على أيديهم الوسخة تعب الناس العاملين .

يقف فترة في الساحة . وينظر إلى بائعة الذرة العمياء . المساء يحل تدريجياً على البحر البعيد ، وعلى الأبنية وعلى الشارع المزدحم . الحمائم ترتفع في الهواء بقوة وتطير نحو ساحة الجامع . البرج الذي يرتفع من بين اشجار الجامعة ، على وشك أن يختلط بالظلام . عيناه ساهمتان .

الطفل ينظر إلى البرج في يوم مشمس . أشعَّة الشمس المنعكسة من زجاج البرج تبهر عينيه . يشعر بقوة خفيَّة لم يعرف مصدرها تسحبه نحو البرج .

الطفل متجه إلى البرج بسرعة . مبتسماً ، بوجهه النَّظيف جداً ، داخل ملابسه البيضاء ، ابتسامة عافية برَّاقة كالشَّمس . (ملاحظة: يستحسن أن يُستخدم فيلم مختلف لكي يظهر واضحاً قسم الحلم هذا) .

يركض بسرعة أكبر تدريجياً . يدخل من باب الجامعة الكبير ، ويعبر ويجتاز الأشجار ، ومقاعد الشُّبَّان . العشب الطري ينسحق تحت حذاءيه اللمَّاعين .

جاذبيات البرج. جاذبية أفقيَّة، وجاذبية معاكسة لها، وجاذبية مائلة.

البرج يدور، والسَّماء تدور، ونظرات الطفل تدور أسرع وأسرع تدريجياً.

أشعة الشمس المنعكسة من نوافذ البرج تكبر، وتمسح وتزيل كل المرئيات. (البرج خارج فكرة **الضياء**، يجب أن يتحول في عين المشاهد إلى رمز **لأشعة** غير دنيويَّة، قاتلة ومهلكة.)

وجه الأجير النظيف، السعيد. أسنانه البيضاء اللامعة عندما يضحك.

ساحة بيازيد في ظلمة المساء. الطفل يرتجف ويصحو من حلمه. يختلط بزحام المساء بخطى لا إرادية متعَبَة. يسير نحو حياته المعتمة، التي تتجدَّد كل صباح بالمرارة نفسها.

يقترب هيكل بائعة الذرة العمياء، شيئاً فشيئاً، وقد جلست القرفصاء وسط الحمائم. في عينيها المغمضتين خطوط قاسية، مستمرة في نسيان عميق. أثناء رميها حبَّات الذرة للحمائم، تجمد الصورة.

١٩٧١

تمت الترجمة في حلب

السبت٢/١٢/٢٠٠٦

القصص الأولى

سَفَر

أوصلني إلى المدينة قطار أسود، كان الوقت ليلاً. أحاط بي ظلام دامس – كان الطقس بارداً، كنت أبرد، عندما كانت كومة الحديد المحمَّلة بالنار تقف لترتاح، فأرى تحرك القطارات الأخيرة في كل المحطات، حين يستيقظ الوادي المقابل للجبال الغافية، وأرى القطارات السوداء المارَّة كخيال صامت، ثم السكك الحديدية الممتدَّة إلى ما لا نهاية . . . – وكما في الليالي التي كانت جدتي تصنع لنا أشكالاً جميلة على نار المنقل – كان الثلج يحط على زجاج نوافذ المقطورات. – لم نكن نخرج العنزة في مثل هذا الطقس، عندما كان الصقيع يلمع فوق الأزهار البرِّيَّة. – كانت الأراضي تدور بسرعة في داخلي، وكذلك السماء التي لا لون لها، والدواليب الفولاذية. وضجيج غليظ في أذنيَّ. وكنت أنقذف من مكاني عند كل هزَّة، – كما تقذف عربة الحصان ذات الدَّواليب الحديدية السائرة في طريق البلدة السيئ، الطفل الذي فوقها، الذاهب لتكسير التبغ، وقد غطى العمش عينيه. – والنعاس يلفني وأنا وحيد في المقصورة،

أو هكذا كنت أشعر. كنت على وشك أن أنقطع؛ ورأسي يميل على الطرفين مع الاهتزازات المنتظمة. أنهيت كل علاقاتي بالبلدة، إذ كان سفري هذا قطعا لعلاقتي بالبلدة والبدء بداية جديدة — جدَّتي أيضا قبل وفاتها كانت تهتز بجسمها الضَّخم هكذا عندما كانت تقلب تربة الحديقة، فيما كنت أراقب الشعرتين البيضاوين اللتين فرّتا خارج غطاء رأسها. كانت الفأس التي تنزلها بكل قوتها على تراب الأرض تقسم ما تصادفه من أعشاب بريَّة، أو ديدان أرض إلى قسمين — أخيرا غفوت، لكني لم أكن أرى حلما. كان الظلام يخز عينيَّ المغمضتين — مع أنني كم من الأحلام الجميلة كنت أرى في طفولتي! . . . ـ عالمي الخيالي الجميل ذاك، وكل الذين أحبهم بقوا في الخلف؛ وغابوا جميعا واحداً تلو الآخر.

فتحت عينيَّ دفعة واحدة، الظلام يلفُّني من كلِّ جانب، وقد حطَّ الليل كل ثقله على الكون، فلم يكن يبدو أي شيء. هذه الليلة تشبه الليالي الأخرى فيما القطار ينسلُّ ويمضي. وفي السماء تلمع بعض النجوم. وضوء أخضر يتبعني باستمرار. لم أستطع التخلص منه بشكل ما. مع أن البلدة فقدت الضوء منذ زمن. ـــ كانت جدَّتي ترسلني إلى الدكان في بعض الليالي، لأجلب الكاز، فأندس خفية، وتنكة الصفيح بيدي، في المحطة. وبعد صافرة مؤلمة، كنت أراقب غياب ضوء أخضر في الظلام رويداً رويداً. فتجثم في داخلي وحدة وبرودة، تكاد تبكيني. في الأيام التي كنت أهرب فيها من المدرسة

كذلك كنت أمضي وقتي قرب القطارات التي على وشك المغادرة.
- انقطع الضجيج شيئا فشيئا، ووقف القطار فجأة: **محطة حيدر باشا**. إني أشعر بفوضى واضطراب ساعات لندن وباريس وبرلين، وساعات كافة المحطات. حين ينتهي سفري تبدأ أسفار أخرى. القاطرات السوداء الحارة اللاهثة، تقلع الناس من ديارهم، وتذهب بهم إلى الأناضول. الأيام الهادئة الساكنة التي ستمضي في بلدة صغيرة، كأنها قد بدأت في المقصورات. إذ تفوح رائحة وحدة غريبة. تفوح الأرائك الخشبية برائحة الأناضول. وفي صباح ساكن يبتعد قطار ما في الظلام شيئا فشيئا.

أوصلني قطار أسود إلى المدينة. كان الوقت ليلاً. اختلطت بالزحام وخرجت من باب المحطة الكبير.

ولأنني لست معتاداً، بدأ ضجيج غريب فجأة. دهشت حين تلفتت حولي: كانت مدينة بلا حدود تمتد إلى ما لا نهاية. والسفن الكبيرة الضخمة منها ما ترتاح، ومنها ما تحمل الحديد لكي تبحر. كان هناك زحام بشري حولي، ووسائط نقل إلى جانب ذلك الزحام الهائل. النسمات التي تهبُّ من البحر تحمل معها رائحة التعرُّق الحامض للحمَّالين الذين يحملون الفحم إلى المواعين. بل لقد نفذت هذه الرائحة حتى إلى البحر، فقد بدا البحر كأنه فقد زرقته، وتحوَّل إلى مكب نفايات.

كانت الشمس ما تزال تبزغ عندما ركبت السَّفينة العبَّارة لأعبر إلى الطرف الآخر ـ استقبلت الصباح في مقهى ـ كنت أرى أمامي كتلة سوداء داكنة؛ وحدها المآذن كانت تبدو كخيالات. والهواء المقدس فوقها يمسح الأبنية الحجريَّة. وأنوار متفرِّقة تشع هنا وهناك في ضباب الصباح، وأصداء أصوات معدنية. كنت أقترب رويداً رويداً. ويكبر الظلام ويلفُّ والأصداء كل جوانبي . . .

ما كنت أخرج من غرفتي نهاراً. كنت أتجوَّل ليلاً فقط. فلا يبدو أحد في المحيط، والأزقة المعتمة خلفي تدفعني إلى خوف لا معنى له. فأخاف! أخاف جداً. إذ ترتفع على جانبيَّ آثار سوداء من مخلفات البيزنطيين. ولا تبدو نجمة واحدة في السماء. ثم الأزقة. الأزقة التي تتقاطع متعامدة على طول المدينة ضيقة في البداية، ثم واسعة، أزقة كثيرة واسعة جداً. من أين وقعت في هذه الدَّوَّامة؟ كيف الخروج منها؟ أينما نظرت ظلام. أصادف أحياناً بعض مصابيح الأزقة الخافتة، وتحتها حارس ليلي يرمقني باستغراب. ثم يمد يده ويضع صافرته في فمه وينفخ فيها بكل قوته. فترتجف الأزقَّة، والأخشاب، وتهتز الأبنية المتداعية كأنها سوف تدخل ببعضها؛ فقط ظل كنيسة يقف منتصباً في الليلة السوداء. ويبدو الصليب فوق برج الجرس الحجري ـ أين أيام كنت أسمع صافرة الحارس من حيث كنت أنام في ليالي البلدة الهادئة ـ يسود الهدوء فترة. هذه المرَّة،

تبدأ الأجراس. تُعلم المدينة الكبيرة بصخب يتضخم شيئاً فشيئاً عن قدوم الصباح ـ تستيقظ جدّتي وتصيخ السَّمع إلى الصوت البعيد القادم من القباب المقدَّسة في جنح الظلام ـ.

عجوز روميَّة في التسعين تحاول بعينيها اللتين لا تريان إشعال الشموع في ظلمة الكنيسة. الألواح الخشبيَّة الطويلة المتمدِّدة باردة كالثلج. والنساء المتشحات بالسَّواد يرتجفن حين يجلسن عليها. لابدَّ أنه صباح أحد، صباح أحد جثت فيه خيالات سوداء، ثم استلقت على أرض الكنيسة الحجري وراحت تقبل تمثالا دامياً مضاء بضوء الشموع.

عندما غادرت الأزقة النتنة وخرجت إلى شارع عريض أحسست بارتياح نفسي. الباصات تنتظر صفوفاً في المواقف. لكنها فارغة. ثم يعم الضياء فجأة، وتبدأ قطعان الناس بالانفلات. وفيما تفتح أبواب الدكاكين، يخرج الناس أشكالاً وأطوالاً مختلفة من البيوت الخشبية، ومن الأزقة الضيِّقة، والعمارات العالية، ومن تحت الجسور، ويسيلون من حولي. أنظر إليهم نظرات فارغة، ولا أفهم ولا أعرف مطلقاً إلى أين يذهبون، وماذا يفعلون، ولماذا يتراكضون هكذا. عندها تبدأ الباصات بالهدير، ويُسمع صفير سفينة مخنوق قادم من البحر الذي لم أره ولم أشم رائحته حتى. ويزداد الضجيج في أذني ويغلظ رويداً رويداً، وهو ما لا أستطيع احتماله أبداً،

فأعود فوراً مجفلاً مرتبكاً إلى غرفتي ، وأندسُّ في فراشي ، وأسحب اللحاف فوق رأسي ، وأسدُّ أذني بيدي ، وأحلم بأيام البلدة الهادئة الدافئة . ويعلو بين الحين والآخر صوت بائع اللبن ، ويتصايح أطفال الرُّحَّل وهم يلعبون في الطين بلا سراويل ، وتعيش البلدة أكثر ساعاتها ضيقاً .

لم أعد أحلم بالبلدة أيضاً . نسيت كل شيء ، وأنا أتجول في أزقة المدينة مشدوهاً مأخوذاً ، وقطيع الناس من حولي ، والضجيج الغليظ في أذني . صرت لا أرى شيئاً . وصرت أسمع فقط صوت تنفس عميق . أجل كانت المدينة الكبيرة تتنفس ، بأناسها القابعين خلف النوافذ ذات الأقفاص المعدنية أو الزجاجية في أبنيتها الخشبية أو الحجرية ، بموانئها الضبابية التي تصفر فيها السفن الضخمة الراسية صفرات مخنوقة إيذاناً بالرحيل إلى مناطق بعيدة . بوسائط نقلها المتحركة بلا توقف في أزقتها الصغيرة الضيقة المتبقية من البيزنطيين ، وفي شوارعها العريضة المستقيمة ، وبعاهراتها ذوات الوجوه الشاحبة المتغضِّنة اللواتي ينتظرن زبوناً أمام البيوت المنخفضة .

١٩٦٧

تمت الترجمة في حلب

مساء السبت ٩/١٢/٢٠٠٦

المحتويات

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٩

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

موجودة دائماً كنتِ يا استانبول. في زمان ليس قبله زمان، ولا بعده زمان كنت.
ليغوس كان اسمكِ، والمياه الرقراقة تحيط بجوانبك الثلاثة، والأشجار تحف في غاباتك.

بيزنطة كان اسمكِ، بقلعتك، بساحتك، بحمّاماتك، بتماثيل آلهتك البرونزية، مدينة صغيرة كنتِ، ومن مينائك الداخلي الهادئ تفتح سفنك أشرعتها نحو البحار الواسعة.

نيوروما كان اسمكِ، بأبوابك، بآثارك الرخامية، بميدان سباق الخيول، مدينة رومانية ذات أبهة كنتِ، والسفن تفرغ حمولاتها من الرخام والذهب في موانئك.

القسطنطينية كان اسمكِ، بأسوارك الثلاثية الصفوف، ببيارق أبراجك، بقصورك، بأديرتك، بكنائسك، بينابيعك المقدسة، عاصمة لإمبراطورية كبرى كنتِ.

دار السعادة كان اسمكِ، والأذان يرتفع من أياصوفيا، والفاتح الذي سيّر السفن في البر، يمسك بيده وردة.

دار الخلافة كان اسمكِ، والأحجار البيضاء تسوى، وفي مخيلة المعمار سِنان تتشكل أبعاد ونسب وحجم وقبة جامع السليمانية، والسفن المحملة بالقمح تشرع أشرعتها متجهة إلى البندقية وجنوه ومرسيليا.

دار الدولة العلية العثمانية كان اسمكِ، والصدر الأعظم والوزر
بعمائمهم الثقيلة وبقفاطينهم الفضفاضة يصعدون إلى الحضر
والإنكشاريون يتمردون، والأمراء يُخنقون في الزنزانات، والسلط
القصر والجواري في جناح الحريم.





مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٠٩

سعر النسخة داخل القطر ٦٠ ل.س
في الأقطار العربية مايعادل ١٢٠ ل.س